غزوة الأحزاب

(الخندق)

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

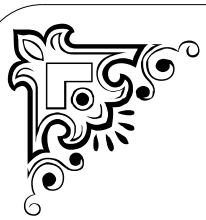

غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ (الْخَنْدَقِ)

فَفِي شَوَّالٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ (٥هـ) كَانَتْ (غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ)، «وَهِيَ (غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ) الَّتِي ابْتَلَىٰ اللهُ فِيهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَزَلْزَلَهُمْ، وَثَبَّتَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَظْهَرَ مَا كَانَ يُبْطِنُهُ أَهْلُ النِّفَاقِ، وَفَضَحَهُمْ وَقَرَّعَهُمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْرَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَرَدَّ الْكَفَرَةَ بِغَيْظِهِمْ، وَوَقَىٰ الْمُؤْمِنِينَ شَرَّ كَيْدِهِمْ، وَذَلِكَ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ -تَعَالَىٰ-.

وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ -أَيْ: عَلَىٰ الْكَفَرَةِ- شَرْعًا وَقَدَرًا أَنْ يَغْزُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَهَا؛ فَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَىٰ الْأَحْزَابَ عَنْهُ: «**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ[(١)].

بَلْ جَعَلَهُمُ الْمَغْلُوبِينَ، وَجَعَلَ حِزْبَهُ هُمُ الْغَالِبِينَ -وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ-»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ٤١١٠)، من حديث: سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه.

(٢) «حصول المأمول بشرح مختصر الفصول في سيرة الرسول ﷺ» (ص: ١٩٥).

سَبَبُ تَسْمِيَةِ الْغَزْوَةِ بِالْخَنْدَقِ وَالْأَحْزَابِ

فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» فِي كِتَابِ «الْمَغَازِي» (بَابُ: غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ وَهِيَ الْأَحْزَابُ)، قَالَ الْحَافِظُ[1]: «اسْمَانِ: الْأَحْزَابُ جَمْعُ حِزْبٍ؛ أَيْ: طَائِفَةٍ، فَلَهَا اسْمَانِ: (غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ) وَ(غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ)، فَأَمَّا تَسْمِيَتُهَا الْخَنْدَقَ؛ فَلِأَجْلِ الْخَنْدَقِ الَّذِي حُفِرَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ الَّذِي أَشَارَ بِذَلِكَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا تَسْمِيَتُهَا الْأَحْزَابَ؛ فَلِاجْتِمَاعِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ: قُرَيْشٌ، وَغَطَفَانُ، وَالْيَهُودُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ».

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ صَدْرَ سُورَةِ الْأَحْزَابِ.(*).

❀❀❀

(١) «فتح الباري»: جزء السابع: قَوْلُهُ بَابُ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، (٧/ ٣٩٢- ٣٩٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٧)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

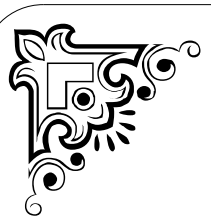

الْيَهُودُ سَبَبُ انْدِلَاعِ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ

لَقَدْ كَانَ سَبَبَ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ خَيْبَرَ مِنْهُمْ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ، وَسَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَغَيْرُهُمْ خَرَجُوا إِلَىٰ مَكَّةَ، وَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَحَرَّضُوهُمْ عَلَىٰ حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَلَّبُوهُمْ عَلَيْهِ، وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ، فَقَالُوا: «إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ نَسْتَأْصِلَهُ».

فَأَجَابَتْهُمْ قُرَيْشٌ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟».

قَالُوا: «بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْهُ».

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٢٣- ٢٤]»(١).

---

(١) ذكره ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: مَا نَزَلَ مِنْ الْبَقَرَةِ فِي الْمُنَافِقِينَ وَيَهُودَ: النَّفَرُ الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ، (١/ ٥٦٢-تهذيب ابن هشام).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ(١): «وَهَذَا لَعْنٌ لَهُمْ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَسْتَمِيلُوهُمْ إِلَىٰ نَصْرِهِمْ، وَقَدْ أَجَابُوهُمْ وَجَاءُوا مَعَهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، حَتَّىٰ حَفَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ الْخَنْدَقَ، فَكَفَىٰ اللهُ شَرَّهُمْ، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥]».

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِقُرَيْشٍ سَرَّهُمْ وَنَشَّطَهُمْ لِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاجْتَمَعُوا لِذَلِكَ، وَتَعَاهَدُوا عَلَىٰ قِتَالِهِ، وَوَعَدُوهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجَ أُولَئِكَ الْيَهُودُ إِلَىٰ غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ -أَيْضًا-(٢). (*).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: (٢/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة- رواية البكائي»: غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ: تَحْرِيضُ الْيَهُودِ لِقُرَيْشٍ وَمَا نَزَلَ فِيهِمْ، (٢/ ٢١٤-تهذيب ابن هشام)، والطبري في «تاريخ الرسل والملوك»: القول في السيرة النبوية: السنة الخامسة من الهجرة «ذكر الخبر عن غزوة الخندق»، (٢/ ٥٦٥) و «جامع البيان»: سُورَةُ النِّسَاءِ: أية ٥١، (٧/ ١٤٦)، وذكره ابن حبان في «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء»: السنة الخامسة من الهجرة: ثم غزا رسول الله ﷺ غزوة الخندق، (١/ ٢٥٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية»: سَنَةُ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ «وَقْتُهَا»، (٦/ ١٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٨)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

لَقَدْ كَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يَتَفَرَّغُونَ لِنَشْرِ دِينِهِمْ، وَإِصْلَاحِ أَحْوَالِهِمْ بَعْدَ أَنْ سَادَ الْهُدُوءُ بِفَضْلِ مَا اتَّخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْخُطَطِ الْحَكِيمَةِ، فَلَمْ يَحْصُلْ بَعْدَ (غَزْوَةِ بَنِي النَّضِيرِ) أَيُّ مُوَاجَهَةٍ تُذْكَرُ لِمُدَّةٍ تَجَاوَزَتْ سَنَةً وَنِصْفَ سَنَةٍ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ الْمَسِيحُ عليه السلام الْحَيَّاتِ أَوْلَادَ الْأَفَاعِي لَمْ يَرُقْهُمْ أَنْ يَسْتَرِيحَ الْمُسْلِمُونَ، فَهُمْ بَعْدَمَا اسْتَقَرُّوا بِـ(خَيْبَرَ) وَاطْمَأَنُّوا بِهَا أَخَذُوا يُدَبِّرُونَ الْمُؤَامَرَاتِ، وَيَتَحَرَّكُونَ وَرَاءَ السِّتَارِ حَتَّىٰ نَجَحُوا فِي جَلْبِ جَيْشٍ عَرَمْرَمٍ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ضِدَّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

«وَغَزْوَةُ الْأَحْزَابِ الْخَطِيرَةُ هِيَ وَإِنْ كَانَتْ فِي الشَّكْلِ وَالْمَظْهَرِ غَزْوَةً قُرَشِيَّةً غَطَفَانِيَّةً إِلَّا أَنَّهَا فِي أَهْدَافِهَا الْبَعِيدَةِ وَمَرَامِيهَا الْعَمِيقَةِ غَزْوَةٌ يَهُودِيَّةٌ لَحْمًا وَدَمًا؛ فَالْيَدُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَمْلَةِ الْمَخُوفَةِ الْمُوَجَّهَةِ لِإِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ إِبَادَةً كَامِلَةً هِيَ يَدٌ يَهُودِيَّةٌ.

فَغَزْوَةُ الْأَحْزَابِ الْمُوَجَّهَةُ لِاحْتِلَالِ الْمَدِينَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَهَدْمِ الْإِسْلَامِ فِي عُقْرِ دَارِهِ قَدْ جَاءَتْ وَفْقَ تَصْمِيمَاتٍ مَدْرُوسَةٍ وَضَعَهَا دُهَاةُ يَهُودَ، كَمَا أَنَّ تَمْوِيلَ هَذِهِ الْحَمْلَةِ الْخَطِيرَةِ قَدْ سَاهَمَ الْيَهُودُ فِيهِ مُسَاهَمَةً كَبِيرَةً.

لَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ وَهُمْ مَصْدَرُ الْفِتَنِ وَالْقَلَاقِلِ وَمُثِيرُو الْحُرُوبِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَزَمَانٍ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ حَزَّبُوا تِلْكَ الْأَحْزَابَ، وَحَشَدُوا عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ أَعْرَابِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَةِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، كَمَا أَنَّ قُرَيْشًا وَهِيَ الْعَدُوُّ الْعَرَبِيُّ التَّقْلِيدِيُّ لِلْمُسْلِمِينَ لَهَا يَدٌ كَبِيرَةٌ فِي تَنْسِيقِ هَذَا الْغَزْوِ، وَالتَّشْجِيعِ عَلَيْهِ، وَالتَّرْحِيبِ بِفِكْرَتِهِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ جَانِبِ الْيَهُودِ.

أَمَّا قُرَيْشٌ فَقَدْ كَانَ نِزَاعُهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَدَعْوَتِهِ نِزَاعًا قَدِيمًا قِدَمَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكَانَ صِرَاعُهَا مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ صِرَاعًا قَدِيمًا مُزْمِنًا يَرْجِعُ عَهْدُهُ إِلَىٰ أَوَّلِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ خَاضَتْ قُرَيْشٌ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ مَعَارِكَ رَهِيبَةً أَوَّلُهَا (مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ)، وَآخِرُهَا (مَعْرَكَةُ أُحُدٍ) الَّتِي بِالرَّغْمِ مِنَ انْتِصَارِهَا الْوَقْتِيِّ فِيهَا لَمْ تُحَقِّقْ لَهَا هَدَفَهَا الْمَنْشُودَ.

أَمَّا الْيَهُودُ فَقَدْ كَانَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْكُرْهُ لِكُلِّ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْبَشَرِ طَبِيعَةً مُسْتَأْصِلَةً فِي نُفُوسِهِمْ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ جَاءَ يَحْمِلُ رِسَالَةً سَمَاوِيَّةً فِيهَا الْخَطَرُ كُلُّ الْخَطَرِ عَلَىٰ كِيَانِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمَبْنِيِّ عَلَىٰ الْغِشِّ وَالدَّسِّ، وَالْوَقِيعَةِ وَالِاسْتِغْلَالِ»(١).

«لَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ دُونَمَا جِدَالٍ يُضْمِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَدَعْوَتِهِ مِنَ الْحِقْدِ وَالْبُغْضِ وَالْحَسَدِ مَا هُوَ أَعْمَقُ مِمَّا تُضْمِرُهُ قُرَيْشٌ وَأَحْلَافُهَا مِنْ أَعْرَابِ الْجَزِيرَةِ، فَكَانَ الْيَهُودُ لِذَلِكَ أَحْرَصَ مِنْ أَعْرَابِ الْجَزِيرَةِ عَلَىٰ مَحْوِ الْإِسْلَامِ وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِذَا كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي مَكَّةَ قَدِ اسْتَطَاعَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ لِقُوَّتِهَا وَضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تُنَكِّلَ بِهِمْ، وَتَفْتِنَ الْبَعْضَ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ تَحْتَ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ،

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» لمحمد بن أحمد باشميل (٣/ ١١٥-١١٦).

بَلْ وَتُجْبِرُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ مُغَادَرَةِ وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ مَكَّةَ لِجَرْأَتِهَا عَلَىٰ الِائْتِمَارِ بِقَتْلِهِ.. إِذَا كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدِ اسْتَطَاعَتْ ذَلِكَ أَوَّلَ الْأَمْرِ فَإِنَّ الْيَهُودَ -الَّذِينَ يَوَدُّونَ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَأَكْثَرَ بِالنَّبِيِّ وَصَحْبِهِ- لَمْ يَكُنْ فِي مَقْدُورِهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِمُفْرَدِهِمْ عِنْدَمَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ يَثْرِبَ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ إِلَّا وَقَدْ سَبَقَهُ تَكْوِينُ جَبْهَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ قَوِيَّةٍ مُشَكَّلَةٍ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الْقَحْطَانِيَّةِ؛ أَيْ: مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي يَثْرِبَ، بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مُهَاجِرِي قُرَيْشٍ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ تَرَكُوا وَطَنَهُمْ فِرَارًا بِدِينِهِمْ، وَانْضَمُّوا إِلَىٰ مُعَسْكَرِ يَثْرِبَ.

فَكَانَتْ هَذِهِ الْجَبْهَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ الْقَوِيَّةُ دِرْعَ الرَّسُولِ ﷺ الْحَرْبِيَّ الْوَاقِيَ الَّذِي يَحْتَمِي بِهِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي غَاظَ الْيَهُودَ وَقَهَرَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ يَعْجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ مُنْفَرِدِينَ بِأَيِّ عَمَلٍ عَسْكَرِيٍّ أَوْ شِبْهِ عَسْكَرِيٍّ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ قُرَيْشٌ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ بِالرَّغْمِ مِنْ قِدَمِهِمْ فِي الْجَزِيرَةِ هُمْ عُنْصُرٌ أَجْنَبِيٌّ دَخِيلٌ عَلَىٰ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يَسْتَطِعْ الِامْتِزَاجَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِالرَّغْمِ مِنْ إِقَامَتِهِ بَيْنَهَا مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً، وَكُلُّ مَا قَامَ بِهِ الْيَهُودُ فِي يَثْرِبَ ضِدَّ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ هُوَ عَمَلِيَّاتُ دَسٍّ وَتَفْرِيقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمُحَاوَلَاتٌ لِإِثَارَةِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ بَيْنَهُمْ، وَحَرَكَاتُ عِصْيَانٍ ضَيِّقَةُ النِّطَاقِ، عَمَلِيَّاتٌ كُلُّهَا بَاءَتْ بِالْفَشَلِ.

وَآخِرُ مُحَاوَلَةٍ جَرِيئَةٍ قَامَ بِهَا الْيَهُودُ هِيَ مُحَاوَلَةُ بَنِي النَّضِيرِ اغْتِيَالَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بَيْنَ مَنَازِلِهِمْ، فَكَانَتْ نِهَايَةُ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ الْفَاشِلَةِ طَرْدَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ

وَإِجْلَاءَهَا عَنِ الْمَدِينَةِ نِهَائِيًّا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ازْدَادَ حِقْدُ الْيَهُودِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَارَ زُعَمَاؤُهُمْ يُفَكِّرُونَ فِي رَسْمِ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ تَكُونُ نِهَايَتُهَا سَحْقَ الْمُسْلِمِينَ سَحْقًا كَامِلًا، وَهَدْمَ كِيَانِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَسَاسِ، فَكَانَتْ ثَمَرَةُ هَذَا التَّفْكِيرِ الْيَهُودِيِّ (غَزْوَةَ الْأَحْزَابِ) الْخَطِيرَةَ الَّتِي كَادَتْ فِعْلًا أَنْ تَعْصِفَ بِكِيَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ»[1].

❀❀❀

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١١٧-١١٨) بتصرف.

بَرْلَمَانٌ يَهُودِيٌّ لِحَشْدِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ

«تَوَالَتِ اجْتِمَاعَاتُ زُعَمَاءِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ فِي (خَيْبَرَ) بَعْدَ الْجَلَاءِ؛ لِبَحْثِ الْوَضْعِ الَّذِي آلَ إِلَيْهِ الْيَهُودُ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ انْهِيَارِ مَرْكَزِهِمُ الرَّئِيسِ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَقِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَوِيَّةً مُتَمَاسِكَةً فِي يَثْرِبَ.

بَعْدَ بَحْثٍ شَامِلٍ دَقِيقٍ لِلْمَوْضُوعِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ قَرَّرَ الْيَهُودُ فِي خَيْبَرَ وَضْعَ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ لِغَزْوٍ شَامِلٍ كَامِلٍ سَاحِقٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَرِكُ فِيهِ أَكْبَرُ عَدَدٍ مُمْكِنٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَوِيَّةِ، وَخَاصَّةً قَبَائِلَ نَجْدٍ وَكِنَانَةَ وَقُرَيْشٍ، عَلَىٰ أَنْ تَتَوَالَىٰ هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَتَوَلَّىٰ خَيْبَرُ -الْيَهُودُ- الدَّعْوَةَ إِلَىٰ هَذَا الْغَزْوِ وَتَنْظِيمَهُ، بَلْ وَتَتَحَمَّلُ جَانِبًا كَبِيرًا مِنْ نَفَقَاتِهِ الْمَالِيَّةِ.

وَنَتِيجَةً لِهَذَا الْقَرَارِ الْخَطِيرِ قَرَّرَ بَرْلَمَانُ خَيْبَرَ تَشْكِيلَ وَفْدٍ مِنْ أَعْضَائِهِ الْبَارِزِينَ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْخَطِيرَةِ، وَالِاتِّصَالِ بِالْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَطْلُوبِ الِاتِّصَالُ بِهَا لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ الْغَزْوِ، وَقَدْ تَكَوَّنَ هَذَا الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ:

حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ: رَئِيسًا.

سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ: عُضْوًا.

كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ: عُضْوًا.

هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيُّ: عُضْوًا.

أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ -الَّذِي كَانَ قَائِدَ فَصِيلَةِ خَوَنَةِ الْأَوْسِ فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ-: عُضْوًا.

غَادَرَ هَذَا الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مَدِينَةَ خَيْبَرَ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ (٤هـ) بَعْدَ مُرُورِ حَوَالَيْ سَنَةٍ عَلَىٰ (مَعْرَكَةِ أُحُدٍ)، وَبَعْدَ مُرُورِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ عَلَىٰ إِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ الْمَدِينَةِ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ قَبَائِلَ غَطَفَانَ النَّجْدِيَّةَ الَّتِي أَلَّفَتْ فِيمَا بَعْدُ الْعَمُودَ الْفِقْرِيَّ لِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ.. بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْقَبَائِلَ كَانَتْ مَنَازِلُهَا أَقْرَبَ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ مِنْ قَبَائِلِ الْحِجَازِ إِلَّا أَنَّ الْوَفْدَ الْيَهُودِيَّ تَوَجَّهَ رَأْسًا إِلَىٰ مَكَّةَ، فَاتَّصَلَ أَوَّلًا بِزُعَمَائِهَا وَقَادَتِهَا، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ كَامِلَ الْمُخَطَّطِ الَّذِي يَحْمِلُهُ لِإِنْشَاءِ الِاتِّحَادِ الْعَسْكَرِيِّ الْقَبَلِيِّ الْكَبِيرِ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَوَضْعِ حَدٍّ لِسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، وَلَدَىٰ إِطْلَاعِ زُعَمَاءِ مَكَّةَ عَلَىٰ الْمُخَطَّطِ الْيَهُودِيِّ سُرُّوا سُرُورًا عَظِيمًا، وَأَبْدَوْا مُوَافَقَتَهُمُ الْكَامِلَةَ عَلَيْهِ، وَاسْتِعْدَادَهُمْ لِتَنْفِيذِهِ بِكَامِلِهِ، بَعْدَ أَنْ شَكَرُوا لِلْيَهُودِ مَجْهُودَهُمُ الْكَبِيرَ فِي وَضْعِ هَذَا الْمُخَطَّطِ، وَالسَّعْيِ مِنْ أَجْلِ تَنْفِيذِهِ»[1].

❀❀❀

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١١٨-١٢٠) بتصرف.

إِنْشَاءُ اتِّحَادٍ عَرَبِيٍّ وَثَنِيٍّ يَهُودِيٍّ لِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ

«عِنْدَ وُصُولِ الْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ إِلَىٰ مَكَّةَ عَقَدَ بَرْلَمَانُ مَكَّةَ جَلْسَةً خَاصَّةً لِبَحْثِ الْمُخَطَّطِ الْيَهُودِيِّ الْمَوْضُوعِ لِإِنْشَاءِ الِاتِّحَادِ الْعَرَبِيِّ الْوَثَنِيِّ الْيَهُودِيِّ لِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ وَالْقَضَاءِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَنْ أَلَمَّ أَعْضَاءُ دَارِ النَّدْوَةِ بِالْمَشْرُوعِ الْيَهُودِيِّ، وَدَرَسُوهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ، وَعَرَفُوا أَنَّ فِي تَنْفِيذِهِ هَدْمَ الْإِسْلَامِ وَالْقَضَاءَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَبْدَوْا لِلْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ سُرُورَهُمُ الْعَظِيمَ، وَمُوَافَقَتَهُمُ الْكَامِلَةَ.

وَوَقَفَ قَائِدُ عَامِّ جَيْشِ مَكَّةَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ خَطِيبًا فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ الَّذِي سَمَحَتْ مَكَّةُ لِلْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ بِحُضُورِ جَلْسَتِهِ الْخَاصَّةِ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِبَحْثِ مَشْرُوعِهِمْ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ.. وَقَفَ وَأَعْلَنَ أَبُو سُفْيَانَ فِي خُطْبَتِهِ بِاسْمِ الْمُجْتَمِعِينَ فِي (دَارِ النَّدْوَةِ) وَبِاسْمِ جَيْشِ مَكَّةَ.. أَعْلَنَ التَّرْحِيبَ بِفِكْرَةِ الْيَهُودِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ إِنْشَاءِ الِاتِّحَادِ الْعَرَبِيِّ الْيَهُودِيِّ الْعَسْكَرِيِّ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ وَسَحْقِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا سَحْقًا كَامِلًا، فَقَالَ مُرَحِّبًا بِالْيَهُودِ: أَهْلًا وَمَرْحَبًا، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْنَا مَنْ أَعَانَنَا عَلَىٰ عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ»(١).

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٢٠) بتصرف.

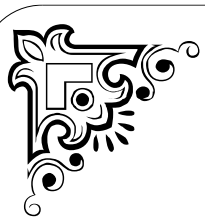

مُنَاقَشَاتٌ حَوْلَ الْإِسْلَامِ وَالْوَثَنِيَّةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ

«جَرَتْ دَاخِلَ الِاجْتِمَاعِ بِمَكَّةَ بَيْنَ زُعَمَائِهَا وَأَعْضَاءِ الْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ مُنَاقَشَاتٌ حَوْلَ الْإِسْلَامِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَتَقَدَّمَ بَعْضُ الْمَكِّيِّينَ إِلَىٰ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فِي الْوَفْدِ بِأَسْئِلَةٍ يَسْأَلُونَهُمْ فِيهَا لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَأَكْثَرُ مَعْرِفَةً بِالْأَدْيَانِ مِنْهُمْ، يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ، وَدِينِ الْوَثَنِيَّةِ، وَأَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالِاتِّبَاعِ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ يَصِفُ مُحَادَثَاتِ الْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ مَعَ قُرَيْشٍ لِلتَّأْلِيبِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ: وَهُمْ -أَيِ: الْيَهُودُ- الَّذِينَ حَزَّبُوا الْأَحْزَابَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: «إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ نَسْتَأْصِلَهُ».

فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْعِلْمِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟».

وَهُنَا تَجَلَّتْ طَبِيعَةُ الْيَهُودِ فِي الْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ وَالتَّحْرِيفِ حَيْثُ أَجَابُوا قُرَيْشًا بِعَكْسِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ؛ إِذْ قَالُوا لِقُرَيْشٍ: «بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ، وَأَنْتُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْهُ؛ لِأَنَّكُمْ تُعَظِّمُونَ هَذَا الْبَيْتَ، وَتَقُومُونَ عَلَىٰ السِّقَايَةِ،

وَتَنْحَرُونَ الْبُدْنَ، وَتَعْبُدُونَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ»[١].

بَلْ إِنَّ الْيَهُودَ لَمْ يَكْتَفُوا بِهَذَا الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ؛ إِذْ سَجَدُوا لِأَصْنَامِ قُرَيْشٍ إِرْضَاءً لَهُمْ عِنْدَمَا طَلَبُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ؛ لِيَطْمَئِنُّوا إِلَىٰ قَوْلِهِمُ الَّذِي قَالُوا بِشَأْنِ الْوَثَنِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ»[٢].

❀❀❀

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٢١) بتصرف.

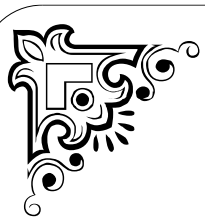

حَشْدُ وَفْدِ الْيَهُودِ غَطَفَانَ وَالْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ

«وَبَعْدَ أَنْ ضَمِنَ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مُوَافَقَةَ قُرَيْشٍ عَلَىٰ مَشْرُوعِ غَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَحَدَّدَ مَوْعِدًا لِهَذَا الْغَزْوِ تَوَجَّهَ هَذَا الْوَفْدُ الشِّرِّيرُ إِلَىٰ دِيَارِ غَطَفَانَ بِنَجْدٍ لِعَرْضِ مُخَطَّطِهِ عَلَىٰ زُعَمَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَىٰ مَنَازِلِ غَطَفَانَ صَارَ يَنْتَقِلُ بَيْنَ مَضَارِبِ الْبَدْوِ وَخِيَامِهِمْ؛ لِلدِّعَايَةِ لِمَشْرُوعِهِ الْخَبِيثِ، وَإِيغَارِ صَدْرِ الْأَعْرَابِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَحْنِ نُفُوسِهِمْ بِالْكُرْهِ لِلْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ شَرَعَ فِي مُحَادَثَاتِهِ مَعَ زُعَمَاءِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْعَظِيمَةِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ مَشْرُوعَ غَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَىٰ مُخَطَّطِ هَذَا الْغَزْوِ، وَأَبْلَغَهُمْ مُوَافَقَةَ قُرَيْشٍ عَلَيْهِ، وَأَنَّهَا قَدْ أَخَذَتْ تَتَجَهَّزُ لِلزَّحْفِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ وَفْقَ هَذَا الْمُخَطَّطِ.

وَقَدْ دَارَتْ مُحَادَثَاتُ الْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ الرَّئِيسَةُ مَعَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيِّ؛ لِأَنَّهُ أَقْوَىٰ شَخْصِيَّةٍ مُطَاعَةٍ بَيْنَ قَبَائِلِ غَطَفَانَ، وَهُوَ الَّذِي وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِـ(الْأَحْمَقِ الْمُطَاعِ)(١)؛ لِأَنَّهُ مَعَ حُمْقِهِ مِنْ جَرَّارِيِّ الْجُيُوشِ الْمَشْهُورِينَ تَتْبَعُهُ عَشَرَةُ آلَافِ قَنَاةٍ.

---

(١) أخرجه الواقدي في «المغازي»: الجزء الثالث: شَأْنُ غَزْوَةِ الطَّائِفِ، (٣/ ٩٣٧)، =

كَمَا حَضَرَ مُحَادَثَاتِ الْوَفْدِ الْيَهُودِيِّ مِنْ زُعَمَاءِ قَبَائِلِ غَطَفَانَ كُلٌّ مِنْ: الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ قَائِدِ بَنِي مُرَّةَ، وَمِسْعَرِ بْنِ رُخَيْلَةَ قَائِدِ بَنِي أَشْجَعَ، وَسُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ قَائِدِ بَنِي سُلَيْمٍ، وَطُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ قَائِدِ بَنِي أَسَدٍ.

وَافَقَ زُعَمَاءُ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْغَطَفَانِيَّةِ عَلَىٰ الْمَشْرُوعِ الْيَهُودِيِّ، وَأَعْجَبَهُمُ الْمُخَطَّطُ الْمَرْسُومُ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَتَمَّ الِاتِّفَاقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ عَلَىٰ تَنْفِيذِهِ بِحَذَافِيرِهِ، وَهَكَذَا نَجَحَ الْيَهُودُ فِي مُحَادَثَاتِهِمْ مَعَ قَبَائِلِ غَطَفَانَ نَجَاحًا كَبِيرًا، هَذِهِ الْقَبَائِلُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ أَقَلَّ حَمَاسَةً مِنْ قُرَيْشٍ لِفِكْرَةِ قِيَامِ الِاتِّحَادِ الْعَرَبِيِّ الْوَثَنِيِّ الْيَهُودِيِّ الْعَسْكَرِيِّ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ.

فَكَمْ حَاوَلَتْ قَبَائِلُ غَطَفَانَ هَذِهِ الْقِيَامَ بِغَزْوِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ مُنْفَرِدَةً فَتَفْشَلُ؛ حَيْثُ يُحْبِطُ النَّبِيُّ الْقَائِدُ ﷺ مُحَاوَلَاتِهَا بِضَرْبِهَا بِسُرْعَةٍ فِي دِيَارِهَا حَتَّىٰ يُشَتِّتَ جُمُوعَهَا قَبْلَ أَنْ تَتَحَرَّكَ؛ وَلِهَذَا فَقَدْ كَانَ مَا عَرَضَهُ الْيَهُودُ فِي مَشْرُوعِهِمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَبَائِلِ مِنَ الْمُشَارَكَةِ مَعَ قُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ فِي غَزْوِ الْمَدِينَةِ أُمْنِيَةً تَتَمَنَّاهَا هَذِهِ الْقَبَائِلُ.

وَقَدْ أَبْرَمَ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مَعَ زُعَمَاءِ أَعْرَابِ غَطَفَانَ اتِّفَاقِيَّةَ الِاتِّحَادِ الْعَرَبِيِّ الْوَثَنِيِّ الْيَهُودِيِّ الْعَسْكَرِيِّ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ أَهَمَّ بُنُودِ هَذَا الِاتِّفَاقِ أَنْ تَكُونَ

=

والطبراني في «المعجم الأوسط»: بَابُ الْمِيمِ: مَنِ اسْمُهُ «مُحَمَّدٌ»، (٥/ ٢٣٠/ رقم ٥١٦٨)، والدارقطني في «السنن»: كتاب النكاح، (٣/ ٢١٨/ رقم٣).

قُوَّةُ غَطَفَانَ فِي جَيْشِ الِاتِّحَادِ هَذَا سِتَّةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَأَنْ يَدْفَعَ الْيَهُودُ لِقَبَائِلِ غَطَفَانَ مُقَابِلَ ذَلِكَ كُلَّ ثَمَرِ نَخْلِ خَيْبَرَ لِسَنَةٍ وَاحِدَةٍ»[١].

❀❀❀

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٢٢-١٢٤) بتصرف.

حَشْدُ الْيَهُودِ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ

«وَهَكَذَا لَمْ يَعُدِ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ الشِّرِّيرُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَشَدَ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَجَمَعَهَا عَلَىٰ حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ جَمْعٌ لَمْ يَسْبِقْ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ وَاجَهُوا مِثْلَهُ فِي حُرُوبِهِمْ مَعَ الْأَعْدَاءِ.

وَقَدْ أَبْلَغَ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ قَادَةَ قُرَيْشٍ بِتَفَاصِيلِ الِاتِّفَاقِيَّةِ الَّتِي تَمَّتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبَائِلِ غَطَفَانَ لِيَكُونَ تَنْسِيقُ الْغَزْوِ بِمُوجَبِهَا، فَاغْتَبَطَتْ قُرَيْشٌ غَايَةَ الِاغْتِبَاطِ بِذَلِكَ، وَشَرَعَ قَادَةُ الْأَحْزَابِ فِي التَّجْهِيزِ، وَبَذَلُوا جُهُودًا جَبَّارَةً لِحَشْدِ جُيُوشِهِمْ وَتَنْظِيمِهَا وَتَمْوِينِهَا لِكَيْ يَكُونَ الْغَزْوُ مُرَكَّزًا نَاجِحًا مُحَقِّقًا لِأَهْدَافِهِ.

أَمَّا قُرَيْشٌ فَقَدِ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَحْشِدَ أَرْبَعَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ بِمَا فِي ذَلِكَ حُلَفَاؤُهَا، وَكَانَ جَيْشُهَا فِي هَذَا الْغَزْوِ أَحْسَنَ جَيْشٍ مِنْ حَيْثُ دِقَّةُ التَّنْظِيمِ، وَجَوْدَةُ التَّسْلِيحِ، وَوَفْرَةُ التَّمْوِيلِ، فَقَدْ كَانَ لِقُرَيْشٍ مِنْ سِلَاحِ النَّقْلِيَّاتِ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةِ بَعِيرٍ، وَمِنْ سِلَاحِ الْمُطَارَدَةِ ثَلَاثُ مِائَةِ فَرَسٍ.

وَفِي (دَارِ النَّدْوَةِ) عَقَدَتْ قُرَيْشٌ اللِّوَاءَ، وَأَعْطَتْهُ لِعُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ الْعَبْدَرِيِّ، أَمَّا قِيَادَةُ الْجَيْشِ فَقَدْ أُسْنِدَتْ إِلَىٰ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ الْأُمَوِيِّ، وَتَسَلَّمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيُّ قِيَادَةَ سِلَاحِ الْفُرْسَانِ، وَهَذَا كُلُّهُ تَمَّ وَيَتِمُّ بِمُوجَبِ نِظَامٍ أَبَدِيٍّ

تَسِيرُ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ فِي حُرُوبِهَا مُنْذُ عُهُودٍ سَحِيقَةٍ؛ حَيْثُ كَانَ النِّظَامُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ بَيْنَ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ أَنْ تَكُونَ الْقِيَادَةُ الْعَامَّةُ لِلْجَيْشِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ، وَأَنْ تَكُونَ السِّقَايَةُ وَالرِّفَادَةُ فِي بَنِي هَاشِمٍ، وَحَمْلُ اللِّوَاءِ فِي الْحُرُوبِ يَخْتَصُّ بِهِ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ مَعَ الْحِجَابَةِ، وَقِيَادَةُ الْفُرْسَانِ ضِمْنَ الْقِيَادَةِ الْعَامَّةِ تَكُونُ دَائِمًا فِي بَنِي مَخْزُومٍ.

وَزِيَادَةً فِي التَّصْمِيمِ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَىٰ حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَ مِنْ بُطُونِهَا خَمْسُونَ رَجُلًا إِلَىٰ الْحَرَمِ فَتَعَاهَدُوا وَقَدْ أَلْصَقُوا أَكْبَادَهُمْ بِالْكَعْبَةِ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِهَا، وَتَعَاهَدُوا وَهُمْ كَذَلِكَ عَلَىٰ أَلَّا يَخْذُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

أَمَّا قَبَائِلُ غَطَفَانَ فَقَدْ حَشَدَتْ سِتَّةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْهَا وَمِنْ أَحْلَافِهَا، وَلَمَّا كَانَتْ غَطَفَانُ لَيْسَ لَهَا نِظَامٌ ثَابِتٌ تَسِيرُ عَلَيْهِ فِي الْحُرُوبِ كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ قُرَيْشٍ الَّتِي يَكُونُ الْقَائِدُ الْعَامُّ لِجُيُوشِهَا رَجُلًا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ دَائِمًا لِأَجْلِ ذَلِكَ تَحَرَّكَتْ قُوَّاتُ غَطَفَانَ تَحْتَ أَرْبَعِ قِيَادَاتٍ، وَذَلِكَ عَلَىٰ حَسَبِ الْقَبَائِلِ الرَّئِيسَةِ فِي غَطَفَانَ وَهِيَ: بَنُو فَزَارَةَ قَائِدُهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، بَنُو أَسَدٍ قَائِدُهَا طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ، بَنُو أَشْجَعَ قَائِدُهُمْ مِسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ بْنِ نُوَيْرَةَ، بَنُو مُرَّةَ قَائِدُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ»[1].

فَتَمَّتِ التَّعْبِئَةُ لِغَزْوِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتِئْصَالِ الْمُسْلِمِينَ.(*).

---

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٢٤-١٢٧) بتصرف.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٧)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

«خَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ فَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَعَقَدُوا اللِّوَاءَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، وَحَمَلَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، وَقَادُوا مَعَهُمْ ثَلَاثَ مِائَةِ فَرَسٍ، وَكَانَ مَعَهُمْ أَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةِ بَعِيرٍ، وَخَرَجُوا يَقُودُهُمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَوَافَقَهُمْ بَنُو سُلَيْمٍ بِـ(مَرِّ الظَّهْرَانِ)[١] وَهُمْ سَبْعُ مِائَةٍ يَقُودُهُمْ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ حَلِيفُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَخَرَجَتْ مَعَهُمْ بَنُو أَسَدٍ يَقُودُهُمْ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ.

وَخَرَجَتْ قَبَائِلُ غَطَفَانَ بَنُو فَزَارَةَ وَهُمْ أَلْفٌ يَقُودُهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وَبَنُو مُرَّةَ وَهُمْ أَرْبَعُ مِائَةٍ يَقُودُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، وَبَنُو أَشْجَعَ وَهُوَ أَرْبَعُ مِائَةٍ يَقُودُهُمْ مِسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ قَوْمٌ آخَرُونَ.

فَكَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ وَافَوُا الْخَنْدَقَ عَشْرَةَ آلَافٍ، وَهُمُ الْأَحْزَابُ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ-، وَعِنَاجُ[٢] الْأَمْرِ إِلَىٰ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ هُوَ صَاحِبُهُمْ وَمُدَبِّرُ أَمْرِهِمْ، وَهُوَ الْقَائِمُ بِشُؤُونِهِمْ، فَاتَّجَهُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ مِيعَادٍ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا عَلَيْهِ»[٣].

(١) «معجم البلدان» للحموي: باب الميم والراء: مَرٌّ، (٥/ ١٠٤).

(٢) عِنَاجُ الأمرِ: أي أَنَّهُ كَانَ صاحبَهُمْ ومُدَبِّرَ أمرِهم، والقائِمَ بشؤونِهِمْ. «النهاية» (٣/ ٢٧٨).

(٣) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: (٣/ ١٤١-١٤٢).

مُشَاوَرَةُ الرَّسُولِ ﷺ أَصْحَابَهُ وَحَفْرُ الْخَنْدَقِ

«قَبْلَ خُرُوجِ الْأَحْزَابِ وَتَوَجُّهِهِمْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ خُزَاعَةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَأَخْبَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَمْرَ الْأَحْزَابِ(١)، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْأَحْزَابُ مِنَ الْأَمْرِ دَعَا النَّاسَ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُمْ، وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رضي الله عنه بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ حُرٌّ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا كُنَّا بِفَارِسَ إِذَا حُوصِرْنَا خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا».

فَأَعْجَبَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ خُطَّةً حَكِيمَةً لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهَا الْعَرَبُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَبَادَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ تَنْفِيذِ هَذِهِ الْخُطَّةِ، فَأَمَرَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَهِيَ عَوْرَةُ الْمَدِينَةِ، لَا يَسْتَطِيعُ الْمُهَاجِمُونَ نَفَاذًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ إِلَّا مِنْهَا بَيْنَ حَرَّتَيْ وَاقِمٍ وَالْوَبْرَةِ -وَالْحَرَّةُ: أَرْضٌ بِظَاهِرِ الْمَدِينَةِ بِهَا حِجَارَةٌ سُودٌ كَثِيرَةٌ-؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ مُشَبَّكَةً بِالْبُنْيَانِ، وَمُحَاطَةً بِالْحَرَّاتِ وَبَسَاتِينِ النَّخِيلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ سِوَىٰ الشَّمَالِ، فَاتُّخِذَ الْخَنْدَقُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ، وَقَطَعَ

(١) «المغازي» للواقدي: الجزء الثاني: ذِكْرُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ ابْنِ أُبَيّ، (٢/ ٤٤٣).

رَسُولُ اللهِ ﷺ لِكُلِّ عَشْرَةِ رِجَالٍ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا يَقُومُونَ بِحَفْرِهَا وَإِعْدَادِهَا»(١).

«شَرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ فِي جَوٍّ بَارِدٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْفِرُ مَعَهُمْ بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ، وَيَحْمِلُ التُّرَابَ بِنَفْسِهِ؛ تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْأَجْرِ، وَتَنْشِيطًا لَهُمْ.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ(٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ الْخَنْدَقِ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَىٰ مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ**».

فَقَالُوا رضي الله عنهم مُجِيبِينَ لَهُ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَىٰ الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»(٣) عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَحْزَابِ وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ

---

(١) «اللؤلؤ المكنون» لموسىٰ بن راشد العازمي: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: خُرُوجُ الْأَحْزَابِ وَعِدَّتُهُمْ، (٣/ ١٤٢-١٤٣)، بتصرف يسير وزيادة تعليق.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ الجِهَادِ: بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَىٰ القِتَالِ: (رقم:٢٨٣٤)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: (رقم:١٨٠٥).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ٤١٠٦)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: (رقم: ١٨٠٣).

حَتَّىٰ وَارَىٰ عَنِّي التُّرَابُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ».

فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ قَالَ الْبَرَاءُ رضي الله عنه: «وَلَقَدْ وَارَىٰ التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ».

قَالَ الْحَافِظُ(١): «ظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ ﷺ كَانَ كَثِيرَ شَعْرِ الصَّدْرِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ فِي صِفَتِهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ دَقِيقَ الْمَسْرُبَةِ -أَيِ: الشَّعْرِ الَّذِي فِي الصَّدْرِ إِلَىٰ الْبَطْنِ-، فَيُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ بِأَنَّهُ كَانَ مَعَ دِقَّتِهِ كَثِيرًا -أَيْ: لَمْ يَكُنْ مُنْتَشِرًا، بَلْ كَانَ مُسْتَطِيلًا-».

«فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا

وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا

وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا ﷺ»(٢).

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري في «لصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠٦)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: (١٨٠٣).

وَلَا تَسَلْ عَمَّا كَانَتْ تَصْنَعُهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْمُؤْمِنَةُ الْعِذَابُ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ مُضَاعَفَةِ الْجَهْدِ وَالِاسْتِهَانَةِ بِالنَّصَبِ وَالتَّعَبِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها **قَالَتْ:** «مَا نَسِيتُ قَوْلَهُ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يُعَاطِيهِمُ اللَّبِنَ -وَاللَّبِنُ: الَّتِي يُبْنَىٰ بِهَا الْجِدَارُ- وَقَدِ اغْبَرَّ شَعْرُ صَدْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ**».

قَالَتْ: «فَرَأَىٰ عَمَّارًا فَقَالَ: «**بُؤْسَ ابْنِ سُمَيَّةَ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَالْمَشْهُورُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِعَمَّارٍ رضي الله عنه: «**تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**»(١) عِنْدَمَا بَنَىٰ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ.

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ»(٢): «يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الْخَنْدَقِ وَهْمًا -يَعْنِي: فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ وَأَحْمَدَ-، أَوْ كَانَ قَدْ قَالَ لَهُ ذَلِكَ عِنْدَ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ وَقَالَهَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ».

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ(٣): «حَمْلُ اللَّبِنِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ لَا مَعْنَىٰ لَهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كتاب الْفِتَنِ: بَابُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ: (رقم: ٢٩١٦)، وأحمد في «المسند»: (رقم:٢٦٤٨٢)، والحديث صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (٧/ ٦٠١/ رقم: ٣١٩٨).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي: (٢/ ٥٤٨).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير: ذِكْرُ مَا وَقَعَ فِي السَّنَةِ الْأُولَىٰ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: فَصْلٌ فِي بِنَاءِ مَسْجِدِهِ الشَّرِيفِ: (٤/ ٥٣٨).

اشْتَبَهَ عَلَىٰ النَّاقِلِ».

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا»(١) **عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَىٰ أَكْتَافِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ**»»(٢).

«قَسَّمَ الرَّسُولُ ﷺ الْمِسَاحَاتِ الْمَطْلُوبَ حَفْرُهَا خَنْدَقًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ لِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْهُمْ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْجِزُوا حَفْرَهَا فِي حُدُودِ الْعُمْقِ وَالْعَرْضِ الَّذِي حَدَّدَتْهُ الْقِيَادَةُ لَهُمْ بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُ، بَلَغَ طُولُ الْخَنْدَقِ حَوَالَيْ خَمْسَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ، أَمَّا عُمْقُ الْخَنْدَقِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ، وَالْعَرْضُ كَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ مِنْ تِسْعَةِ أَذْرُعٍ؛ لِأَنَّ الْخَيْلَ بِاسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَقْتَحِمَ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ هَذِهِ الْمَسَافَةِ.

اسْتَغْرَقَ حَفْرُ الْخَنْدَقِ -كَمَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ- شَهْرًا كَامِلًا(٣)»(٤).

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ٤٠٩٨)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ١٨٠٤).

(٢) «اللؤلؤ المكنون» لموسىٰ بن راشد العازمي: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: خُرُوجُ الْأَحْزَابِ وَعِدَّتُهُمْ: (٣/ ١٤٣-١٤٦).

(٣) «زاد المعاد» لابن القيم: (٣/ ٢٤٣).

(٤) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٤١).

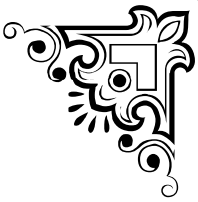

حَفْرُ الْخَنْدَقِ جَعَلَ الْمَدِينَةَ حِصْنًا مَنِيعًا

«بَعْدَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ أَصْبَحَتِ الْمَدِينَةُ كَالْحِصْنِ الْمَنِيعِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْمُغَامَرَاتِ الِانْتِحَارِيَّةِ، وَبَعْدَ تَضْحِيَاتٍ بَاهِظَةٍ جَسِيمَةٍ.

كَانَتِ الْمَدِينَةُ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ الْخَنْدَقِ -وَهُوَ خَطُّ الدِّفَاعِ الرَّئِيسُ- كَانَتْ مُشَبَّكَةً بِالْبُنْيَانِ، مُحَاطَةً بِأَشْجَارِ النَّخِيلِ الْكَثِيفَةِ وَلِمَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ، وَسِوَىٰ النَّخِيلِ مِنَ الزُّرُوعِ الْأُخْرَىٰ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ الْحَوَاجِزِ الطَّبِيعِيَّةِ الصَّعْبَةِ الْكُبْرَىٰ وَهِيَ الْحِرَارُ الثَّلَاثُ الَّتِي تَكْتَنِفُ الْمَدِينَةَ مِنْ جِهَاتِهَا الثَّلَاثِ: حَرَّةٌ مِنَ الْجَنُوبِ، وَحَرَّةٌ وَاقِمٍ مِنَ الشَّرْقِ، وَحَرَّةُ الْوَبْرَةِ مِنَ الْغَرْبِ، وَالْحِرَارُ فِي مَنْطِقَةِ الْمَدِينَةِ تُشَكِّلُ حَوَاجِزَ طَبِيعِيَّةً فَعَّالَةً لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ رَاجِلًا كَانَ أَمْ رَاكِبًا اجْتِيَازَهَا إِلَّا بِصُعُوبَةٍ كَبِيرَةٍ؛ لِأَنَّهَا مَزْرُوعَةٌ بِحِجَارَةٍ سَوْدَاءَ مَحْرُوقَةٍ يَكُونُ لَهَا غَالِبًا رُءُوسٌ جَارِحَةٌ كَأَطْرَافِ الْآلَاتِ الْحَادَّةِ.

وَهَكَذَا وَبِحَفْرِ الْخَنْدَقِ اسْتَطَاعَتْ قِيَادَةُ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ أَنْ تَعْزِلَ جُيُوشَ الْعَدُوِّ عَنْ مَكَانِ تَجَمُّعِ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُدَافِعِ عَنِ الْمَدِينَةِ عَزْلًا تَامًّا، وَأَنْ تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اقْتِحَامِ مَدَاخِلِ الْمَدِينَةِ كَمَا يُرِيدُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَاخِلَ

صَارَتْ بَعْدَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ خَلْفَهُ مَمْنُوعَةً بِهِ، فَقَدْ حَالَ الْخَنْدَقُ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ وَبَيْنَ أَيِّ الْتِحَامٍ جِدِّيٍّ شَامِلٍ.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَهْدُفُ إِلَيْهِ الْقِيَادَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَتَكْرَهُهُ وَلَا تُرِيدُ حُدُوثَهُ قِيَادَةُ جُيُوشِ الْأَحْزَابِ الَّتِي مَا حَشَدَتْ تِلْكَ الْجُنُودَ، وَلَا جَنَّدَتْ تِلْكَ الْحُشُودَ الَّتِي لَمْ تَشْهَدِ الْجَزِيرَةُ مِثْلَهَا إِلَّا لِتَشْتَبِكَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ تَهْدِفُ مِنْ وَرَائِهَا إِلَىٰ مَحْوِ الْكِيَانِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَىٰ الْأَبَدِ»(١).

«لَقَدْ تَحَصَّنَ الْمُسْلِمُونَ وَرَاءَ الْخَنْدَقِ الْوَاسِعِ الْعَمِيقِ الَّذِي يَبْلُغُ طُولُهُ حَوَالَيْ اثْنَيْنِ مِنَ الْكِيلُو مِتْرَاتٍ، الْخَنْدَقُ الَّذِي لَا يَجْرُؤُ عَلَىٰ اقْتِحَامِهِ إِلَّا فَارِسٌ فَذٌّ زَاهِدٌ فِي الْحَيَاةِ، أَمَّا الْمُشَاةُ فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَىٰ اقْتِحَامِهِ أَبَدًا.

وَاسْتَفَادَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْ مَنَاعَةِ (جَبَلِ سَلْعٍ) الَّذِي جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، كَمَا اسْتَفَادَ مِنْ وُعُورَةِ حَرَّةِ الْوَبْرَةِ لِحِمَايَةِ جَنَاحِهِ الْأَيْسَرِ، وَوُعُورَةِ حَرَّةِ وَاقِمٍ لِحِمَايَةِ جَنَاحِهِ الْأَيْمَنِ، وَكَذَلِكَ وُعُورَةُ الْحَرَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ لِحِمَايَةِ الْمُؤَخِّرَةِ.

فَأَمِنَ جَيْشُ الْإِسْلَامِ أَمْنًا كُلِّيًّا مِنْ خَطَرِ أَيِّ الْتِفَافٍ يَقُومُ بِهِ الْعَدُوُّ، فَظَهْرُهُ إِلَىٰ جَبَلِ سَلْعٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ الْمَدِينَةُ، وَأَبْنِيَتُهَا الْمُتَشَابِكَةُ، وَنَخِيلُهَا الْمُتَلَاصِقُ مَعَ الْحَرَّةِ، وَجَنَاحَاهُ مَحْمِيَّتَانِ بِالْحَرَّتَيْنِ مَعَ جُزْءٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، أَمَّا صَدْرُهُ فَقَدْ وَاجَهَ بِهِ جُيُوشَ الْأَحْزَابِ الَّتِي صَارَ الْخَنْدَقُ فَاصِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا(٢).

---

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٤٢-١٤٣).

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: (٢/ ٦٦).

وَهَكَذَا نَجَحَتْ خُطَّةُ الدِّفَاعِ الَّتِي اتَّبَعَهَا الْمُسْلِمُونَ نَجَاحًا كَامِلًا؛ حَيْثُ صَارُوا بَعْدَ تَطْبِيقِهَا كَأَنَّهُمْ فِي قَلْعَةٍ مَنِيعَةٍ يَكُونُ الْمَوْتُ مَصِيرَ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالِاقْتِرَابِ مِنْهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْخَنْدَقِ الشَّمَالِيَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِجُيُوشِ الْأَحْزَابِ أَنْ تَقُومَ بِأَيِّ قِتَالٍ جِدِّيٍّ، وَعَلَىٰ نِطَاقٍ وَاسِعٍ كَمَا تُرِيدُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِهَا، فَكَانَ الْخَنْدَقُ بِحَقٍّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ الدِّفَاعِيَّةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ لِإِحْبَاطِ هُجُومِ الْأَحْزَابِ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ.

وَقَدْ وَجَدَ قَادَةُ الْأَحْزَابِ الْمَكَانَ الَّذِي حَدَّدُوهُ لِيَكُونَ هَدَفَ هُجُومِهِمُ الرَّئِيسَ وَهُوَ مَدَاخِلُ الْمَدِينَةِ الْفَسِيحَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ.. وَجَدُوا هَذَا الْمَكَانَ تُعَسْكِرُ فِيهِ جُيُوشُ الْإِسْلَامِ رَابِضَةً لُيُوثُهَا وَرَاءَ الْخَنْدَقِ الْعَمِيقِ، فَتَحَطَّمَتْ آمَالُهُمْ، وَانْهَارَتْ خُطَطُهُمُ الَّتِي رَسَمُوهَا لِاقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْأَسَاسِ»[1].

❀❀❀

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة»: الفصل الثاني: فعالية الخندق في الدفاع عن المدينة: (٣/ ١٤٣)، بتصرف.

مُعَانَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخَاذُلُ الْمُنَافِقِينَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ

«وَاصَلَ الْمُسْلِمُونَ عَمَلَهُمْ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ مُسْتَعْجِلِينَ، يُبَادِرُونَ قُدُومَ الْعَدُوِّ، فَكَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهِ طُوَالَ النَّهَارِ، وَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فِي الْمَسَاءِ، وَقَدْ كَانُوا يُقَاسُونَ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَأَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّىٰ رَبَطُوا عَلَىٰ بُطُونِهِمُ الْحِجَارَةَ مِنَ الْجُوعِ.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»(١) **عَنْ جَابِرٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: «إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ -وَالْكُدْيَةُ: قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ لَا تَعْمَلُ فِيهَا الْفُؤُوسُ- فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «**أَنَا نَازِلٌ**»، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فِي الْكُدْيَةِ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»(٢) **عَنْ أَنَسٍ** رضي الله عنه **أَنَّهُ قَالَ**: «جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ رضي الله عنه: يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفَّيْ مِنَ الشَّعِيرِ يُطْبَخُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ -وَالْإِهَالَةُ: الدُّهْنُ الَّذِي يُؤْتَدَمُ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ زَيْتًا

(١) أخرج البخاري في «لصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠١).
(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ٤١٠٠).

أَوْ سَمْنًا أَوْ شَحْمًا، وَالسَّنِخَةُ الَّتِي تَغَيَّرَ طَعْمُهَا وَلَوْنُهَا مِنْ قِدَمِهَا، لِهَذَا وَصَفَهَا بِكَوْنِهَا بَشِعَةً، فَيُصْنَعُ أَيْ يُطْبَخُ لَهُمْ- بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ -أَيْ: خَشِنَةٌ كَرِيهَةُ الطَّعْمِ- وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ».

أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَدْ كَانُوا يَتَأَخَّرُونَ فِي الْعَمَلِ، وَيُثَبِّطُونَ عَزَائِمَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَخَاذَلُونَ وَيَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْعَمَلِ وَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ بِغَيْرِ عِلْمِ الرَّسُولِ ﷺ وَلَا إِذْنِهِ»[1].

«بَيْنَمَا الْعَمَلُ يَجْرِي بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ وَاجْتِهَادٍ وَإِخْلَاصٍ لِحَفْرِ الْخَنْدَقِ مِنْ جَانِبِ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّفْوَةِ مِنْ أَصْحَابِهِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ حِرْصِ قِيَادَةِ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ إِنْجَازِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ يَتِمَّ قَبْلَ وُصُولِ جُيُوشِ الْأَحْزَابِ فَإِنَّ قِيَادَةَ الْمَدِينَةِ وَاجَهَتْ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَىٰ مَتَاعِبَ وَأَعْمَالًا عَلَيْهَا طَابَعُ التَّخْرِيبِ وَالتَّفْتِيتِ، مِنْ فِئَاتٍ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، فَقَدْ كَانَ لَهُمْ مُنْذُ بَدَأَتْ الِاسْتِعْدَادَاتُ لِمَعْرَكَةِ الْخَنْدَقِ أَدْوَارٌ غَيْرُ مُشَرِّفَةٍ، بَلْ مَشِينَةٌ وَسَيِّئَةٌ.

فَقَبْلَ وُصُولِ الْأَحْزَابِ وَأَثْنَاءَ عَمَلِيَّةِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِحُكْمِ الظَّاهِرِ جُزْءًا مِنَ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ كَانُوا يَتَكَاسَلُونَ فِي الْعَمَلِ أَثْنَاءَ عَمَلِيَّةِ الْحَفْرِ، وَإِنْ عَمِلُوا مَعَ الْجُنْدِ لَا يَعْمَلُونَ إِلَّا الضَّعِيفَ التَّافِهَ مِنَ الْعَمَلِ، وَكَانُوا بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ هَذَا التَّكَاسُلِ يَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ تَخْرِيبِيَّةٍ يُشَجِّعُونَ بِهَا

(١) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: (٣/ ١٤٧-١٤٩).

ضِعَافَ النُّفُوسِ عَلَىٰ التَّهَاوُنِ فِي الْعَمَلِ فِي الْخَنْدَقِ؛ بُغْيَةَ تَأْخِيرِ إِنْجَازِ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ تَصِلَ جُيُوشُ الْأَحْزَابِ.

فَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بِالرَّغْمِ مِنَ الْأَوَامِرِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمُشَدَّدَةِ الَّتِي تَقْضِي بِأَلَّا يَتْرُكَ أَحَدٌ مَكَانَهُ فِي الْعَمَلِ فِي الْخَنْدَقِ إِلَّا بِإِذْنٍ خَاصٍّ مِنَ النَّبِيِّ الْقَائِدِ ﷺ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ، وَيَتَسَلَّلُونَ مِنْهُ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا الرَّسُولَ الْقَائِدَ ﷺ، فَيَكُونُ لِأَعْمَالِهِمُ التَّخْرِيبِيَّةِ هَذِهِ آثَارٌ سَيِّئَةٌ عَلَىٰ سَيْرِ الْعَمَلِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ.

أَمَّا الْمُسْلِمُونَ الصَّادِقُونَ فَقَدْ كَانُوا يُقَدِّرُونَ الظُّرُوفَ الِاسْتِثْنَائِيَّةَ الْخَطِيرَةَ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ مُوَاصَلَةَ الْحَفْرِ لِإِنْجَازِ الْخَنْدَقِ بِأَسْرَعِ مَا يُمْكِنُ، فَكَانُوا لِذَلِكَ لَا يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ فِي الْخَنْدَقِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ قُصْوَىٰ تَسْتَدْعِي ذَلِكَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانُوا إِذَا نَابَتْ أَحَدَهُمْ نَائِبَةٌ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا لَا يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ لِقَضَائِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْخُذُوا إِذْنًا خَاصًّا مِنَ النَّبِيِّ الْقَائِدِ ﷺ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ -تَعَالَىٰ- الَّذِي جَاءَ فِيهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٢].

فَيَأْذَنُ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي اللَّحَاقِ بِحَاجَتِهِمْ، فَإِذَا قَضَوْهَا عَادُوا إِلَىٰ ما كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي الْخَنْدَقِ بِأَقْصَىٰ سُرْعَةٍ؛ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي الْخَيْرِ، وَحِرْصًا عَلَىٰ إِطَاعَةِ أَوَامِرِ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ ﷺ.

أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَدْ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَيَتْرُكُونَ الْعَمَلَ فِيهِ، وَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ حَيْثُ شَاءُوا دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا النَّبِيَّ ﷺ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِقَصْدِ التَّخْرِيبِ وَالتَّثْبِيطِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَلَا بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ بِالرَّغْمِ مِنْ تَظَاهُرِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَانْخِرَاطِهِمْ فِي سِلْكِ جَيْشِهِ، ذَلِكَ التَّظَاهُرُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَقِيَّةً تَجْعَلُهُمْ فَقَطْ يَتَمَتَّعُونَ بِحُقُوقِ الْمُوَاطِنِ الْمُسْلِمِ، وَهُمْ فِي حَقِيقَتِهِمْ لَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ، لِهَذَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَشْعُرُونَ فِي أَعْمَاقِ نُفُوسِهِمْ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُلْزَمِينَ بِطَاعَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَىٰ أَسَاسِ هَذَا الشُّعُورِ كَانَ تَصَرُّفُهُمُ الْمَشِينُ أَثْنَاءَ عَمَلِيَّةِ حَفْرِ الْخَنْدَقِ.

وَلَقَدْ نَدَّدَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ بِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ فِي الْخَنْدَقِ بِدَافِعِ التَّخْرِيبِ، فَيَتْرُكُونَهُ دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا النَّبِيَّ ﷺ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]»(١). (*).

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٣/ ١٣٨-١٤١) بتصرف.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٨)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

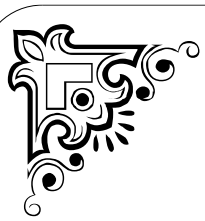

الْمُعْجِزَاتُ النَّبَوِيَّةُ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ

لَقَدْ ظَهَرَتْ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ مُعْجِزَاتٌ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنْهَا:

* **تَكْثِيرُ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ**: أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ[1] عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمْصًا شَدِيدًا -أَيْ: جُوعًا شَدِيدًا-، فَانْكَفَأْتُ إِلَىٰ امْرَأَتِي -أَيْ: رَجَعْتُ إِلَىٰ امْرَأَتِي وَاسْمُهَا سُهَيْلَةُ بِنْتُ مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيَّةُ رضي الله عنها- فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَمْصًا شَدِيدًا؟

فَأَخْرجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا -أَيْ: وِعَاءً- فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ -وَالدَّاجِنُ: الشَّاةُ الَّتِي يَعْلِفُهَا النَّاسُ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَلَا تُفْلَتُ لِلْمَرْعَىٰ، وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَسْمَنَ-».

فِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ[2] قَالَتْ زَوْجَةُ جَابِرٍ: «عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ -وَالْعَنَاقُ: بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَتَخْفِيفِ النُّونِ هِيَ الْأُنْثَىٰ مِنَ الْمَعْزِ-».

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠٢)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الْأَشْرِبَةِ: بَابُ جَوَازِ اسْتِتْبَاعِهِ غَيْرَهُ إِلَىٰ دَارِ مَنْ يَثِقُ بِرِضَاهُ بِذَلِكَ: (٢٠٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠١).

وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ(١) **قَالَ جَابِرٌ** رضي الله عنهما: «وَكَانَتْ عِنْدَنَا شُوَيْهَةٌ».

«وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَىٰ فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

فَقَالَتْ: «لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ».

فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ! ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ».

فِي رِوَايَةٍ فِي الْبُخَارِيِّ(٢) **فَقُلْتُ**: «فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ».

فَصَاحَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ! إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيَّهَلًا بِكُمْ** -السُّورُ: الطَّعَامُ الَّذِي يُدْعَىٰ إِلَيْهِ-»(٣).

زَادَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجَابِرٍ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّىٰ أَجِيءَ**».

قَالَ جَابِرٌ: «فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّىٰ جِئْتُ امْرَأَتِي

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (١٥٠٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ الجِهَادِ: بَابُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالفَارِسِيَّةِ: (٣٠٧٠)، من حديث: جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما.

فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ -أَيْ: ذَمَّتْهُ وَدَعَتْ عَلَيْهِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: بِكَ تُلْحَقُ الْفَضِيحَةُ، وَبِكَ يَتَعَلَّقُ الذَّمُّ- بِكَ وَبِكَ».

فَقُلْتُ: «قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ».

فَأَخْرَجْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ، وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمِدَ إِلَىٰ بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ثُمَّ قَالَ: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاغْرُفِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا**»، وَهُمْ أَلْفٌ.

قَالَ جَابِرٌ: «فَأُقْسِمُ بِاللهِ! لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّىٰ تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا -أَيْ: مَالُوا عَنِ الطَّعَامِ- وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ -أَيْ: تَغْلِي وَتَفُورُ- كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ».

*** وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْخَنْدَقِ: مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»**(١)، **وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»**(٢) **عَنْ جَابِرٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: «مَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَهُمْ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ ثَلَاثًا لَمْ يَذُوقُوا طَعَامًا، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ هَاهُنَا كُدْيَةً مِنَ الْجَبَلِ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رُشُّوهَا بِالْمَاءِ**».

فَرَشُّوهَا، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ -وَالْمِعْوَلُ: بِكَسْرِ الْمِيمِ الْفَأْسُ

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (٤١٠١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (١٤٢١١)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٧/ ٣٧٧/ رقم: ٣٦٨١١)، من حديث: جَابِرٍ رضي الله عنه.

أَوِ الْمِسْحَاةُ وَهِيَ الْمَجْرَفَةُ مِنَ الْحَدِيدِ- ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**»، فَضَرَبَ ثَلَاثًا فَصَارَتْ كَثِيبًا يُهَالُ -أَيْ: رَمْلًا يَسِيلُ وَلَا يَتَمَاسَكُ-».

قَالَ جَابِرٌ: «فَكَانَتْ مِنِّي الْتِفَاتَةٌ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ شَدَّ عَلَىٰ بَطْنِهِ حَجَرًا».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكُبْرَىٰ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِيهِ حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فِيهِ الْمِعْوَلُ -أَيْ: لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ-، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَلْقَىٰ ثَوْبَهُ، وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ قَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ! إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَىٰ وَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ وَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ! إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ الْآنَ**»، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» فَقَطَعَ الْحَجَرَ وَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ! إِنِّي لَأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ**»(١).

وَلَمْ يَمْضِ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَّا نَحْوُ رُبُعِ قَرْنٍ حَتَّىٰ فُتِحَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ كُلُّهَا، فَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ (١٤هـ) بَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ بِتِسْعِ سِنِينَ

---

(١) أخرجه أَحْمَد فِي «المسند»: (١٨٦٩٤)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَىٰ»: (٨/ ١٣٤/ رقم: ٨٨٠٧)، وحَسَّنَ إسنادَهُ الحافظُ في الفتح (٨/ ١٥٤).

وَقَعَتْ (مَعْرَكَةُ الْيَرْمُوكِ) الْعَظِيمَةُ الَّتِي قَادَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه وَهَزَمَ فِيهَا الرُّومَ، وَفُتِحَتِ الشَّامُ.

وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ (١٥هـ) بَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ بِعَشْرِ سِنِينَ وَقَعَتْ (مَعْرَكَةُ الْقَادِسِيَّةِ) الْعَظِيمَةُ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، وَهُزِمَ فِيهَا الْفُرْسُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ، وَفُتِحَتْ فِيهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ.(*).

أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَإِنَّهُ لَمَّا بَشَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ بِالْفَتْحِ قَالُوا: «تَعْجَبُونَ يُحَدِّثُكُمْ وَيُمَنِّيكُمْ وَيَعِدُكُمْ بِالْبَاطِلِ، يُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يَبْصُرُ مِنْ يَثْرِبَ قُصُورَ الْحِيرَةِ وَمَدَائِنَ كِسْرَىٰ، وَأَنَّهَا تُفْتَحُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ تَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَبْرُزُوا؟!»(٢).(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٩)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي: (٣/ ٤١٨).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٢٩)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

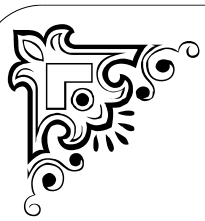

مُدَّةُ حَفْرِ الْخَنْدَقِ

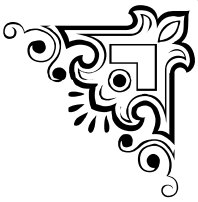

لَقَدْ وَاصَلَ الْمُسْلِمُونَ عَمَلَهُمْ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ تَكَامَلَ الْخَنْدَقُ حَسَبَ الْخُطَّةِ الْمَنْشُودَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ جَيْشُ الْكُفَّارِ الْعَرَمْرَمُ إِلَىٰ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ.

وَاخْتُلِفَ فِي قَدْرِ الْمُدَّةِ الَّتِي اسْتُغْرِقَ فِيهَا حَفْرُ الْخَنْدَقِ، فَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ»(١): «أَنَّهُمْ فَرَغُوا مِنْ حَفْرِهِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، وَعِنْدَ مُوسَىٰ بْنِ عُقْبَةَ فِي «مَغَازِيهِ»(٢): «أَنَّهُمْ أَقَامُوا فِي عَمَلِهِ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً»، وَعِنْدَ الْوَاقِدِيِّ(٣): «أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ»، وَفِي «الرَّوْضَةِ»(٤) لِلنَّوَوِيِّ: «خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا»، وَعِنْدَ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي «زَادِ الْمَعَادِ»(٥): «أَقَامُوا شَهْرًا»»(٦).

---

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: (٢/ ٦٧).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر: (٧/ ٣٩٣).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر: (٧/ ٣٩٤).

(٤) «روضة الطالبين» للنووي: كتاب السير: (١٠/ ٢٠٧).

(٥) «زاد المعاد» لابن القيم: (٣/ ٢٤٣).

(٦) «اللؤلؤ المكنون» لموسىٰ بن راشد العازمي: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: (٣/ ١٥٥).

وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِأَنْ تَكُونَ أَوَّلُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمَجْمُوعَاتِ الَّتِي وَزَّعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَغَتْ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ اسْتَغْرَقَ مَعَهُمْ سِتَّةَ أَيَّامٍ، وَآخِرُ مَجْمُوعَةٍ فَرَغَتْ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ أَخَذَ مَعَهَا شَهْرًا كَامِلًا، وَبِذَلِكَ تُجْمَعُ الْأَقْوَالُ.

فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ جَاءَ الْحَارِثُ بْنُ زِيَادٍ السَّاعِدِيُّ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه بِابْنِ عَمٍّ لَهُ لِيُبَايِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ، فَامْتَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ بَيْعَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَنْصَارِ.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ الْمُشْكِلِ» بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ زِيَادٍ السَّاعِدِيِّ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّهُ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ يُبَايِعُ النَّاسَ عَلَىٰ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! بَايِعْ هَذَا».

قَالَ ﷺ: «**وَمَنْ هَذَا؟**».

قَالَ: «ابْنُ عَمِّي حَوْطُ بْنُ يَزِيدَ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا أُبَايِعُكَ إِنَّ النَّاسَ يُهَاجِرُونَ إِلَيْكُمْ وَلَا تُهَاجِرُونَ إِلَيْهِمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يُحِبُّ رَجُلٌ الْأَنْصَارَ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ يُحِبُّهُ، وَلَا يُبْغِضُ رَجُلٌ الْأَنْصَارَ حَتَّىٰ يَلْقَىٰ اللهَ إِلَّا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ يُبْغِضُهُ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (رقم: ١٥٥٤٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار»: (٧/ ٤٧/ رقم: ٢٦٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير»: (٣/ ٢٦٣/ رقم: ٣٣٥٦)، والحديث صححه الألباني في «السلسة الصحيحة»: (٤/ ٢٣٥/ رقم: ١٦٧٢).

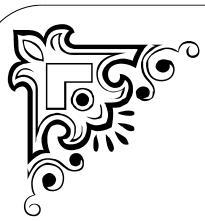

تَعْبِئَةُ الْجَيْشَيْنِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَعْرَكَةِ

«وَمَا إِنْ فَرَغَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَتَّىٰ أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ، فَنَزَلَتْ أَعَالِيَ أَرْضِ الْمَدِينَةِ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ بَيْنَ الْجُرُفِ وَزَغَابَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ فِي سِتَّةِ آلَافٍ حَتَّىٰ نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقَمَيْ إِلَىٰ جَانِبِ جَبَلِ أُحُدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠].

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إِلَىٰ جَبَلِ سَلْعٍ، وَوُجُوهَهُمْ إِلَىٰ نَحْوِ الْعَدُوِّ، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ، وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ آلَافِ رَجُلٍ.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالذَّرَارِي وَالنِّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الْآطَامِ -أَيْ: فِي الْحُصُونِ وَالْأَبْنِيَةِ الْمُرْتَفِعَةِ-، وَاسْتَخْلَفَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ[1].

---

(١) أخرجه أبو داوود في «السنن»: كِتَاب الصَّلَاةِ: بَابُ إِمَامَةِ الْأَعْمَىٰ: (رقم: ٥٩٥)، وأورده ابْنُ الْأَثِيرِ فِي «جَامِعِ الْأُصُولِ»: الكتاب الرابع: الفصل الثاني: فيمن تصح إمامته وإمارته: (٤/ ٤٩/ رقم: ٢٠٢٦).

=

وَأَعْطَىٰ لِوَاءَ الْمُهَاجِرِينَ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَلِوَاءَ الْأَنْصَارِ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

«وَأَوْصَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَيَّتَهُمُ الْعَدُوُّ أَنْ يَكُونَ شِعَارُهُمْ: حَمْ لَا يُنْصَرُونَ»(٢). أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَتَبْيِيتُ الْعَدُوِّ هُوَ أَنْ يُقْصَدَ فِي اللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ حَتَّىٰ يُؤْخَذَ بَغْتَةً وَهُوَ الْبِيَاتُ.

ضُرِبَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ -أَيْ: مِنْ جِلْدٍ-، وَجُعِلَ عَلَىٰ حِرَاسَتِهَا طَائِفَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِيهِمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَكَانُوا يَحْرُسُونَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَفِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ قَدِمَ الْأَحْزَابُ بِجَيْشٍ ضَخْمٍ جِدًّا قِوَامُهُ عَشْرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، ﴿**وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾**﴾ [الأحزاب: ٢٢].

=

والحديث صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: (٣/ ١٤٦/ رقم: ٦٠٨).

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: (٢/ ٦٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (رقم: ١٦٦١٥)، وأبو داوود في «السنن»: كِتَاب الْجِهَادِ: بَابٌ فِي الرَّجُلِ يُنَادِي بِالشِّعَارِ: (رقم: ٢٥٩٧)، والترمذي في «الجامع»: أَبْوَابُ الْجِهَادِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي الشِّعَارِ: (رقم: ١٦٨٢).

والحديث صححه الألباني في «السلسة الصحيحة»: (٧/ ٢٥٩/ رقم: ٣٠٩٧).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ(١): «أَيْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يَعْقُبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿**وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ**﴾ [الأحزاب: ٢٢]»»(٢).

❀❀❀

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: سُورَةِ الْأَحْزَابِ: الآية ٢٢: (٦/ ٣٩٢).

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٥٦-١٥٨).

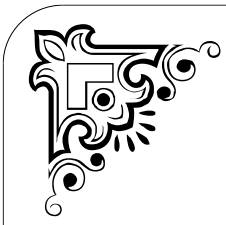

عَجْزُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْهُجُومِ بِسَبَبِ الْخَنْدَقِ

«وَلَمَّا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ مُهَاجَمَةَ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِحَامَ الْمَدِينَةِ وَجَدَ خَنْدَقًا عَرِيضًا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، فَدُهِشُوا وَعَجِبُوا فَقَالُوا: «وَاللهِ! إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا، فَلَجَئُوا إِلَىٰ فَرْضِ الْحِصَارِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ».

وَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ يَدُورُونَ حَوْلَ الْخَنْدَقِ يَتَحَسَّسُونَ نُقْطَةً ضَعِيفَةً لِيَنْحَدِرُوا مِنْهَا لَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا، فَأَخَذُوا يُنَاوِشُونَ الْمُسْلِمِينَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وِجَاهَهُمْ يَحْرُسُونَ خَنْدَقَهُمْ، وَيَتَطَلَّعُونَ إِلَىٰ جَوْلَاتِ الْمُشْرِكِينَ، وَيَرْشُقُونَهُمْ بِالنَّبْلِ حَتَّىٰ لَا يَجْتَرِئُوا عَلَىٰ الِاقْتِرَابِ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَأَقَامُوا عَلَىٰ ذَلِكَ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ إِلَّا الرَّمْيُ بِالنَّبْلِ وَالْحِصَارُ»[1].

(١) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٥٨-١٥٩).

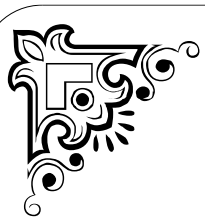

نَقْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ

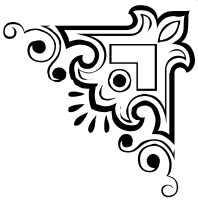

«ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ كَلَّمَ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ يَسْأَلُهُمْ أَنْ يَنْقُضُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ حَتَّىٰ أَتَىٰ كَعْبَ بْنَ أَسَدٍ الْقُرَظِيَّ سَيِّدَ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَغْلَقَ كَعْبٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَابَ حِصْنِهِ، وَأَبَىٰ أَنْ يُقَابِلَ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، لَكِنَّ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ أَلَحَّ عَلَىٰ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ وَأَخَذَ يَضْرِبُ عَلَىٰ بَابِهِ وَيُنَادِيهِ: «وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي».

فَقَالَ كَعْبٌ: «وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ، وَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ مُحَمَّدًا فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إِلَّا وَفَاءً وَصِدْقًا».

فَقَالَ حُيَيٌّ: «وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! افْتَحْ لِي أُكَلِّمْكَ».

قَالَ: «مَا أَنَا بِفَاعِلٍ».

فَقَالَ حُيَيٌّ: «وَاللهِ! مَا أَغْلَقْتَ الْحِصْنَ دُونِي إِلَّا تَخَوُّفًا مِنْ أَنْ آكُلَ مِنْ جَشِيشَتِكَ -نَوْعٌ مِنَ الطَّعَامِ تُطْحَنُ الْحِنْطَةُ طَحْنًا جَلِيلًا ثُمَّ تُجْعَلُ فِي الْقُدُورِ، وَيُلْقَىٰ عَلَيْهَا لَحْمٌ أَوْ تَمْرٌ وَتُطْبَخُ-»[1].

---

(١) ذكره ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٠-تهذيب ابن هشام).

فَحِينَئِذٍ فَتَحَ لَهُ الْبَابَ، وَدَخَلَ حُيَيٌّ، فَقَالَ: «وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ وَبِبَحْرٍ طَامٍّ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ عَلَىٰ قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، وَبِغَطَفَانَ عَلَىٰ قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، وَقَدْ عَاهَدُونِي عَلَىٰ أَلَّا يَبْرَحُوا حَتَّىٰ نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ».

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: «جِئْتَنِي -وَاللهِ- بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ -أَيْ: سَحَابٍ- لَا مَاءَ فِيهِ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً، وَاللهِ! مَا أَكْرَهَنَا عَلَىٰ دِينٍ، وَلَا غَصَبَنَا مَالًا، وَلَا نَنْقِمُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَعَمَلِهِ شَيْئًا وَأَنْتَ تَدْعُو إِلَىٰ الْهَلَكَةِ، فَنُذَكِّرُكَ اللهَ إِلَّا مَا أَعْفَيْتَنَا مِنْ نَفْسِكَ».

وَتَكَلَّمَ عَمْرُو بْنُ سَعْدٍ الْقُرَظِيُّ فَذَكَرَ وَفَاءَ الرَّسُولِ ﷺ، وَمُعَاهَدَتَهُمْ إِيَّاهُ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! إِنَّكُمْ قَدْ حَالَفْتُمْ مُحَمَّدًا عَلَىٰ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ أَلَّا تَخُونُوهُ، وَلَا تَنْصُرُوا عَلَيْهِ عَدُوًّا، وَأَنْ تَنْصُرُوهُ عَلَىٰ مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ فَأَوْفُوا عَلَىٰ مَا عَاهَدْتُمُوهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ وَاعْتَزِلُوهُمْ».

وَلَكِنَّ حُيَيًّا مَا زَالَ بِكَعْبٍ يَفْتِنُهُ فِي الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّىٰ سَمَحَ لَهُ عَلَىٰ أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا وَمِيثَاقًا لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمَّدًا أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُ فِي حِصْنِهِ يُصِيبُهُ مَا يُصِيبُ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ، وَبَرِئَ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

---

(١) أخرجه الواقدي في «المغازي»: (٢/ ٥٠٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٠١).

ثُمَّ قَامَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ وَمَزَّقَتِ الصَّحِيفَةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْعَقْدُ، وَدَخَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ[١].

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ حِرْصَ بَنِي قُرَيْظَةَ الْأَوَّلَ عَلَىٰ الْتِزَامِ الْعَهْدِ كَانَ خَوْفًا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ فَقَطْ، فَلَمَّا ظَنَّتْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أُحِيطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَأَنَّهَا لَنْ تُؤَاخَذَ عَلَىٰ خِيَانَةٍ أَسْفَرَتْ عَلَىٰ خِيَانَتِهَا وَانْضَمَّتْ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ الْمُهَاجِمِينَ»[٢].

(١) «البداية والنهاية»: سَنَةُ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: مَوْقِفُ الْأَحْزَابِ بَعْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ: (٦/ ٣٦-٣٧).

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٥٨-١٥٩).

تَحَرِّي سُفَرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ
خَبَرَ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ

«فَلَمَّا انْتَهَىٰ خَبَرُ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ.. لَمَّا انْتَهَىٰ هَذَا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعَثَ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ رضي الله عنه لِيَتَأَكَّدَ مِنْ صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنْتُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَىٰ فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا أَبَتِ! رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ».

قَالَ: «وَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟».

قُلْتُ: «نَعَمْ».

قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟**»».

«فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: «**فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي!**»».

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كتاب أصحاب النبي ﷺ: بَابُ مَنَاقِبِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ: (رقم: ٣٧٢٠)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم: بَابُ مِنْ فَضَائِلِ طَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ رضي الله عنهما: (رقم: ٢٤١٦).

فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «**مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**».

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: «أَنَا».

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**».

فَقَالَ الزُّبَيْرُ: «أَنَا».

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**».

قَالَ الزُّبَيْرُ: «أَنَا».

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ حَوَارِيِّيَ الزُّبَيْرُ**».

ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ السَّعْدَيْنِ؛ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ سَيِّدَ الْأَوْسِ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ سَيِّدَ الْخَزْرَجِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ لَهُمْ: «**انْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا** -يَعْنِي: بَنِي قُرَيْظَةَ- **فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ** -يَعْنِي: أَشِيرُوا إِلَيَّ وَلَا تُفْصِحُوا، وَلَا تُصَرِّحُوا- **فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ٤١١٣)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: بَابُ مِنْ فَضَائِلِ طَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (رقم: ٢٤١٥).

(٢) ذكره ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: (٢/ ٢٢١-تهذيب ابن هشام).

فَخَرَجُوا حَتَّىٰ أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَىٰ أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: «لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ».

فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ الْمُوَادَعَةِ، وَتَجْدِيدِ الْحِلْفِ، فَقَالُوا: «الْآنَ وَقَدْ كُسِرَ جَنَاحُنَا - يُرِيدُونَ بِجَنَاحِهِمُ الْمَكْسُورَةِ بَنِي النَّضِيرِ -».

فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: «دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَىٰ -أَيْ: أَكْبَرُ وَأَزْيَدُ- مِنَ الْمُشَاتَمَةِ»(١).

ثُمَّ أَقْبَلَ السَّعْدَانِ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالُوا: «عَضَلٌ وَالْقَارَّةُ -أَيْ: كَغَدْرِ قَبِيلَةِ عَضَلٍ وَقَبِيلَةِ الْقَارَّةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ-».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ**».

ثُمَّ تَقَنَّعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِثَوْبِهِ فَاضْطَجَعَ وَمَكَثَ طَوِيلًا، فَاشْتَدَّ عَلَىٰ النَّاسِ الْبَلَاءُ وَالْخَوْفُ حِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ اضْطَجَعَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ خَيْرٌ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ ﷺ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ**»(٢)»(٣).

❀❀❀

(١) ذكره ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٢-تهذيب ابن هشام).

(٢) ذكره ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: (٢/ ٢٢١-تهذيب ابن هشام)، وأخرجه الطبري في «تاريخ الرسل والملوك»: (٢/ ٥٧٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٠٣).

(٣) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٦١-١٦٤).

مُحَاصَرَةُ الْأَعْدَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ وَاشْتِدَادُ الْخَوْفِ

«عَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَضَاقَ الْأَمْرُ، وَخِيفَ عَلَىٰ الذَّرَارِي وَالنِّسَاءِ، وَأَتَاهُمُ الْأَحْزَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، حَتَّىٰ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ وَكَانُوا كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»، وَابْنُ إِسْحَاقَ فِي «السِّيرَةِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟».

قَالَ: «نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي».

قَالَ: «فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟».

قَالَ حُذَيْفَةُ: «وَاللهِ! لَقَدْ كُنَّا نَجْتَهِدُ».

فَقَالَ الْفَتَىٰ: «وَاللهِ! لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَىٰ أَعْنَاقِنَا».

فَقَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «يَا ابْنَ أَخِي! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ.. إِلَىٰ أَنْ قَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ** -يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ- **أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟**»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَشِدَّةِ الْجُوعِ وَشِدَّةِ الْبَرْدِ»[(١)»[(٢)].

❀❀❀

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (رقم: ٢٣٣٣٤)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ١٧٨٨)، وابن حبان في «الصحيح»: (١٦/ ٦٧/ رقم: ٧١٢٥)، من حديث: حُذَيْفَةَ رضي الله عنه.

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٦٤-١٦٥).

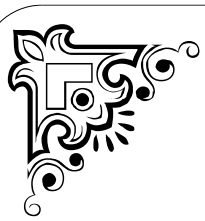

ظُهُورُ النِّفَاقِ مَعَ اشْتِدَادِ الْمِحْنَةِ

«وَنَجَمَ[١] النِّفَاقُ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُهُمْ: «كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لَا يَأْمَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ قَضَاءِ حَاجَتِهِ».

وَقَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ[٢]: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ، فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَىٰ دَارِنَا فَإِنَّهَا خَارِجَ الْمَدِينَةِ نَخْشَىٰ عَلَيْهَا السَّرِقَةَ».

فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَأْذِنُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لَهُ، وَفِي هَؤُلَاءِ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٢-١٣]»[٣].

---

(١) نَجَمَ: ظَهَرَ. «النهاية» (٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السير- رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٣٥).

(٣) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٦٥-١٦٦).

تَبْشِيرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّصْرِ وَحِرَاسَةُ الْمَدِينَةِ

«أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَىٰ مَا فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْكَرْبِ جَعَلَ يُبَشِّرُهُمْ وَيَقُولُ لَهُمْ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَيُفَرَّجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ آمِنًا، وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ ﷻ إِلَيَّ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ، وَلَيُهْلِكَنَّ اللهُ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ، وَلَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ**»[(١)].

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ رضي الله عنه فِي مِائَتَيْ رَجُلٍ، وَزَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه فِي ثَلَاثِ مِائَةِ رَجُلٍ يَحْرُسُونَ الْمَدِينَةَ، وَيُظْهِرُونَ التَّكْبِيرَ تَخَوُّفًا عَلَىٰ الذَّرَارِي وَالنِّسَاءِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَهَذَا بَلَاءٌ جَدِيدٌ، وَكَانَ أَهْلُ الْآطَامِ -يَعْنِي: الْأَبْنِيَةِ الْمُرْتَفِعَةِ وَالْحُصُونِ- مَا كَانُوا يَنَامُونَ إِلَّا عُقَبًا -أَيْ: نُوَبًا تَنَامُ طَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ يَتَنَاوَبُونَ فِي ذَلِكَ-؛ خَوْفًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْهِمْ»[(٢)].(*).

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ فَرْضِ الخُمُسِ: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَكُمُ الغَنَائِمُ»: (رقم: ٣١٢٠)، ومسلم في «الصحيح»: بَابُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ...: (رقم: ٢٩١٨)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**قَدْ ماتَ كِسْرَىٰ، فلا كِسْرَىٰ بَعْدَهُ، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ، فلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما في سَبيلِ اللهِ**».

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٦٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣٠)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

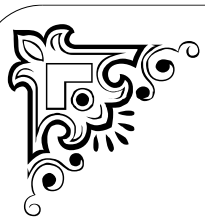

مُحَاوَلَةُ الصُّلْحِ مَعَ غَطَفَانَ وَمُشَاوَرَةُ النَّبِيِّ السَّعْدَيْنِ

«لَمَّا اشْتَدَّ عَلَىٰ النَّاسِ الْبَلَاءُ وَالْحِصَارُ مِنَ الْأَحْزَابِ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيِّ وَإِلَىٰ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرِّيِّ وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ لِيُصَالِحَهُمَا عَلَىٰ إِعْطَائِهِمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، عَلَىٰ أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَبِلَا، وَجَرَتِ الْمُرَاوَضَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ[1] -وَالْمُرَاوَضَةُ: أَنْ تُوَاصِفَ الرَّجُلَ بِالسِّلْعَةِ لَيْسَتْ عِنْدَكَ-.

فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بَعَثَ إِلَىٰ السَّعْدَيْنِ -سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ فَقَالَا لَهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَمْرًا تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْئًا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ لَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟».

قَالَ ﷺ: «**بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، وَاللهِ! مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّنِي رَأَيْتُ**

(١) أخرجه الواقدي في «المغازي»: (٢/ ٤٧٧)، وابن إسحاق في «السيرة- رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٣٠).

الْعَرَبَ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَىٰ أَمْرٍ مَا».

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، لَا نَعْبُدُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً إِلَّا قِرًىٰ -أَيْ: إِضَافَةً وَضِيَافَةً- أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَهَدَانَا لَهُ، وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا، وَاللهِ! مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللهِ! لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ».

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**فَأَنْتَ وَذَاكَ**»(١)»(٢).

❀❀❀

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة- رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٣)، والطبري في «تاريخ الرسل والملوك»: (٢/ ٥٧٣)، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٥٦/ رقم: ٦٨٦٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٣٠).

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: (٣/ ١٦٩-١٧١).

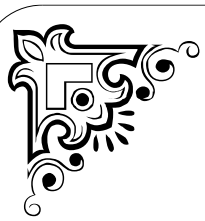

مُنَاوَشَاتٌ وَرَمْيٌ بِالنَّبْلِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ

«أَقَامَ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الْخَنْدَقِ وَعَدُوُّهُمْ يُحَاصِرُهُمْ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا الرَّمْيُ بِالنِّبَالِ، حَتَّىٰ خَرَجَتْ فَوَارِسُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَىٰ خَيْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ تَلَبَّسُوا لِلْقِتَالِ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ وُدٍّ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ، وَنَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، ثُمَّ أَقْبَلُوا تُعْنِقُ -أَيْ: تُسْرِعُ- بِهِمْ خَيْلُهُمْ، حَتَّىٰ وَقَفُوا عَلَىٰ الْخَنْدَقِ، ثُمَّ تَيَمَّمُوا مَكَانًا ضَيِّقًا، فَاقْتَحَمُوا مِنْهُ، وَجَالَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ فِي أَرْضٍ سَبِخَةٍ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ أَخَذُوا عَلَيْهِمُ الثُّغْرَةَ الَّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ»[1].

وَظَلَّتِ الْمُنَاوَشَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ قَائِمَةً.

(١) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: اقتِحَامُ نَفَرٍ مِنَ الْمُشرِكِينَ الْخَنْدَقَ: (٣/ ١٧١).

اسْتِمْرَارُ الْمُنَاوَشَاتِ وَإِصَابَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه

«اسْتَمَرَّتِ الْمُنَاوَشَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ، فَرَمَىٰ حِبَّانُ بْنُ الْعَرِقَةِ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه بِسَهْمٍ فَأَصَابَهُ بِأَكْحَلِهِ -وَالْأَكْحَلُ: عِرْقٌ فِي وَسَطِ الذِّرَاعِ-.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو -أَيْ: أَتْبَعُ- آثَارَ النَّاسِ، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّةً، فَجَلَسْتُ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَمَرَّ سَعْدٌ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهَا أَطْرَافُهُ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَىٰ أَطْرَافِ سَعْدٍ، قَالَتْ: وَكَانَ سَعْدٌ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ يَقُولُ:

لَبِّثْ قَلِيلًا يُدْرِكِ الْهَيْجَا حَمَلْ ... مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلْ

قَالَتْ رضي الله عنها: وَرَمَىٰ سَعْدًا رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ بِسَهْمٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرِقَةِ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهَا»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (٢٥٠٩٧)، وابن حبان في «الصحيح»: (١٥/ ٤٩٨/ رقم: ٧٠٢٨)،

فِي رِوَايَةٍ جَابِرٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَالطَّحَاوِيِّ فِي «شَرْحِ الْمُشْكِلِ» وَاللَّفْظُ لَهُ

قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: «فَحَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّارِ -أَيْ: كَوَاهُ لِيَقْطَعَ دَمَهُ- فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ فَتَرَكَهُ، فَنَزَفَهُ الدَّمُ، فَحَسَمَهُ أُخْرَىٰ فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَلَمَّا رَأَىٰ سَعْدٌ ذَلِكَ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّىٰ تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ، فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً حَتَّىٰ نَزَلُوا عَلَىٰ حُكْمِ سَعْدٍ رضي الله عنه»(١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ(٢): «وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دَعْوَةَ وَلِيِّهِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ فَحَكَمَ فِيهِمْ بِقُدْرَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ، وَجَعَلَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ، فَحَكَمَ بِقَتْلِ مُقَاتِلَتِهِمْ، وَسَبْيِ ذَرَارِيهِمْ حَتَّىٰ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ فَوْقَ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ** -أَيْ: سَبْعِ سَمَوَاتٍ-».

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَنْ يُحْمَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِيُطَبَّبَ فِيهِ، وَلِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ(٣) **عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها **قَالَتْ**: «أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، رَمَاهُ

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ جَوَازِ قِتَالِ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ: (رقم: ١٧٦٩)، والطَّحَاوِيّ فِي «شَرْحِ مُشْكِلِ الْآثَارِ»: (١٢/ ٥٣٤/ رقم: ٥٠٠٦) واللفظ له.

(٢) «البداية والنهاية»: سَنَةُ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: مَوْقِفُ الْأَحْزَابِ بَعْدَ فَرَاغِ رَسُولِ اللهِ مِنَ الْخَنْدَقِ (٦/ ٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ الصَّلَاةِ: بَابُ الخَيْمَةِ فِي المَسْجِدِ لِلْمَرْضَىٰ =

رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ بْنُ الْعَرِقَةِ رَمَاهُ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ؛ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ»»[1].

وَفِي رِوَايَةِ الطَّحَاوِيِّ[2] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ قَالَتْ رضي الله عنها: «لِتَقْرُبَ عَلَيْهِ عِيَادَتُهُ».

❀❀❀

=

وَغَيْرِهِمْ: (رقم:٤٦٣)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ جَوَازِ قِتَالِ مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ: (رقم: ١٧٦٩).

(١) «مرويات غزوة الخندق»: الباب الخامس: الفصل الثالث: دور سعد بن معاذ وبلاؤه في هذه الغزوة: (ص: ٣٥٦-٣٦١)، بتصرف وزيادة التعليق.

(٢) أخرجه الطحاوي في «شَرْحِ مُشْكِلِ الْآثَارِ»: (١٢/ ٥٣٥/ رقم: ٥٠٠٧).

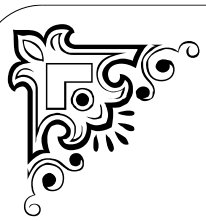

رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُدَاوِي الْجَرْحَى

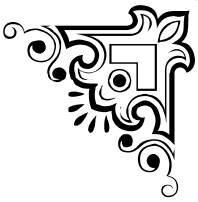

«وَكَانَتِ الَّتِي تُدَاوِي الْجَرْحَىٰ رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ»[1] **بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: «لَمَّا أُصِيبَ أَكْحَلُ سَعْدٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَثَقُلَ حَوَّلُوهُ عِنْدَ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا رُفَيْدَةُ وَكَانَتْ تُدَاوِي الْجَرْحَىٰ»»[2].

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: (ص:٣٨٥/ رقم: ١١٢٩)، والحديث صححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد»: (ص: ٤٣٤/ رقم: ٨٦٣).

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُدَاوِي الْجَرْحَىٰ: (٣/ ١٧٩)، بتصرف.

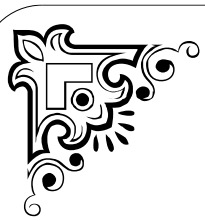

اسْتِمْرَارُ الْقِتَالِ وَفَوَاتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ

«لَمَّا طَالَ الْمَقَامُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ اتَّعَدُوا -أَيْ: تَوَاعَدُوا- أَنْ يَغْدُوا جَمِيعًا وَلَا يَتَخَلَّفَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَبَاتُوا يُعَبِّئُونَ أَصْحَابَهُمْ، ثُمَّ وَافَوُا الْخَنْدَقَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَأَخَذُوا يُفَرِّقُونَ كَتَائِبَهُمْ حَوْلَهُ.

فَعَبَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ، وَوَعَدَهُمُ النَّصْرَ إِنْ صَبَرُوا، فَأَحْدَقَ الْمُشْرِكُونَ بِكُلِّ وَجْهٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، وَوَجَّهُوا عَلَىٰ قُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ كَتِيبَةً غَلِيظَةً فِيهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَاتَلُوهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ إِلَىٰ قَرِيبٍ مِنَ اللَّيْلِ، مَا يَقْدِرُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَزُولُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَلَا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا أَصْحَابُهُ الْعَصْرَ إِلَّا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

ثُمَّ رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ مُتَفَرِّقِينَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ وَعَسْكَرِهِمْ، وَانْصَرَفَ الْمُسْلِمُونَ إِلَىٰ قُبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه عَلَىٰ الْخَنْدَقِ فِي مِائَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

فَكَرَّ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ غِرَّةَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَاوَشُوهُمْ سَاعَةً، فَزَرَقَ وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ -أَيْ: طَعَنَ وَرَمَىٰ- الطُّفَيْلَ بْنَ النُّعْمَانِ مِنْ بَنِي

سَلِمَةَ بِمِزْرَاقَةٍ -أَيْ: بِرُمْحٍ قَصِيرٍ- فَقَتَلَهُ وَانْكَشَفُوا، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ قِتَالٌ حَتَّىٰ انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ، لَكِنَّهُمْ لَا يَدَعُونَ الطَّلَائِعَ بِاللَّيْلِ يَطْمَعُونَ فِي الْغَارَةِ.

فَلَمَّا صَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قُبَّتِهِ جَمَعَ أَصْحَابَهُ فَصَلَّىٰ بِهِمُ الْعَصْرَ ثُمَّ الْمَغْرِبَ.

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ(١) **عَنْ جَابِرٍ** رضي الله عنه **قَالَ**: «إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ، قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! مَا كِدْتُ أُصَلِّي الْعَصْرَ حَتَّىٰ كَادَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ».

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللهِ! مَا صَلَّيْتُهَا».

«فَقُمْنَا إِلَىٰ بُطْحَانَ -وَهُوَ وَادٍ بِالْمَدِينَةِ- فَتَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا، فَصَلَّىٰ الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّىٰ بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ».

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»(٢) **عَنْ عَبْدِ اللهِ** رضي الله عنه **قَالَ**: «حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّىٰ احْمَرَّتِ الشَّمْسُ أَوِ اصْفَرَّتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ،**

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ: بَابُ مَنْ صَلَّىٰ بِالنَّاسِ جَمَاعَةً بَعْدَ ذَهَابِ الوَقْتِ: (رقم: ٥٩٦)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ: بَابُ الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ الصَّلَاةُ الْوُسْطَىٰ هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ: (رقم: ٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ: بَابُ الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ الصَّلَاةُ الْوُسْطَىٰ هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ: (رقم: ٦٢٨).

مَلَأَ اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، أَوْ قَالَ: حَشَا اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا».

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «ثُمَّ صَلَّاهَا -أَيْ: صَلَاةَ الْعَصْرِ- بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ»»[1].(*).

❀❀❀

(١) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: اسْتِمْرَارُ الْقِتَالِ وَفَوَاتُ الصَّلَاةِ: (٣/ ١٧٩-١٨١)، بتصرف.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣١)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

إِسْلَامُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه وَأَهَمِّيَّتُهُ

فَبَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الشِّدَّةِ وَهَذَا الْخَوْفِ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي كِتَابِهِ مِنْ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ، وَرَمْيِهِمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ؛ إِذْ يُحْدِثُ اللهُ -تَعَالَىٰ- أَمْرًا وَهُوَ إِسْلَامُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه.

قَالَ رضي الله عنه: «لَمَّا سَارَتِ الْأَحْزَابُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرْتُ مَعَ قَوْمِي وَأَنَا عَلَىٰ دِينِي ذَلِكَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِي عَارِفًا، فَقَذَفَ اللهُ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ، فَكَتَمْتُ ذَلِكَ قَوْمِي، وَخَرَجْتُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَآنِي جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: «**مَا جَاءَ بِكَ يَا نُعَيْمُ؟**».

قُلْتُ: «إِنِّي جِئْتُ أُصَدِّقُكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ».

فِي رِوَايَةِ الْبَيْهَقِيِّ فِي «الدَّلَائِلِ» قَالَ نُعَيْمٌ: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي فَمُرْنِي أَمْرَكَ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ**»(١).

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٤٥).

قَالَ نُعَيْمٌ: «وَلَكِنْ يَا رَسُولَ اللهِ! ائْذَنْ لِي فَأَقُولَ».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ**».

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه **حَتَّىٰ أَتَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ**: «يَا بَنِي قُرَيْظَةَ! قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ، وَخَاصَّةَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ».

قَالُوا: «صَدَقْتَ لَسْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ».

فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ تَتَحَوَّلُوا مِنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ، فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ، فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ بِبَلَدِكُمْ، وَلَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ إِنْ خَلَا بِكُمْ، فَلَا تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتَّىٰ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا -جَمْعُ رَهْنٍ، وَهُوَ مَا وُضِعَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ مِمَّا يَنُوبُ مَنَابَ مَا أُخِذَ مِنْهُ- حَتَّىٰ تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهُنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ عَلَىٰ أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمَّدًا حَتَّىٰ تُنَاجِزُوهُ».

فَقَالُوا لَهُ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ».

ثُمَّ خَرَجَ نُعَيْمٌ رضي الله عنه **حَتَّىٰ أَتَىٰ قُرَيْشًا فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ**: «قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْتُ عَلَيَّ حَقًّا أَنْ أُبَلِّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي».

قَالُوا: «نَفْعَلُ».

قَالَ: «تَعْلَمُوا أَنَّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَىٰ مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ إِنَّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَىٰ مَا قَدْ فَعَلْنَا، فَهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَىٰ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتَّىٰ نَسْتَأْصِلَهُمْ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ أَنْ نَعَمْ، فَإِنْ بَعَثَتْ إِلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلَا تَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا».

ثُمَّ خَرَجَ نُعَيْمٌ رضي الله عنه حَتَّىٰ أَتَىٰ غَطَفَانَ، فَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ! إِنَّكُمْ أَهْلِي وَعَشِيرَتِي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا أَرَاكُمْ تَتَّهِمُونِي».

قَالُوا: «صَدَقْتَ مَا أَنْتَ عِنْدَنا بِمُتَّهَمٍ».

قَالَ: «فَاكْتُمُوا عَنِّي».

قَالُوا: «نَفْعَلُ؛ فَمَا أَمْرُكَ؟».

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَمَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذَّرَهُمْ مَا حَذَّرَهُمْ».(*).

هَكَذَا جَاءَتْ قِصَّةُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فِي كُتُبِ الْمَغَازِي، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ جِدًّا وَلَكِنَّهَا بِدُونِ إِسْنَادٍ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ تَنَاقَلُوهَا عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣٢)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هَذِهِ الْقِصَّةُ -يَعْنِي قِصَّةَ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ- ذَكَرَهَا ابْنُ إِسْحَاقَ بِدُونِ إِسْنَادٍ، وَعَنْهُ ابْنُ هِشَامٍ، لَكِنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «**الْحَرْبُ خُدْعَةٌ**» صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ عَنْهُ ﷺ».

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ وَالتَّفَاسِيرِ وَكُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لِسِيرَتِهِ ﷺ وَغَزَوَاتِهِ هَذِهِ الْقِصَّةَ قِصَّةَ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَمِمَّنْ ذَكَرَهَا: «ابْنُ إِسْحَاقَ، وَالْوَاقِدِيُّ، وَابْنُ سَعْدٍ، وَالْبَلَاذُرِيُّ، وَالطَّبَرِيُّ، وَالْبَيْهَقِيُّ، وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَالسُّهَيْلِيُّ، وَابْنُ الْأَثِيرِ، وَالْكَلَاعِيُّ، وَابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ، وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَالسَّمْهُودِيُّ، وَالسُّيُوطِيُّ، وَالْقَسْطَلَّانِيُّ»(٢)، وَغَيْرُهُمْ، كُلُّهُمْ ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ عِنْدَمَا تَعَرَّضَ لِسِيرَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَغَزَوَاتِهِ ﷺ.

---

(١) «التعليقات الحسان»: (٧/ ١٤٢/ رقم: ٤٧٤٣).

(٢) «السيرة- رواية البكائي» لابْن إِسْحَاق: (٢/ ٢٢٩- تهذيب ابن هشام)، و«المغازي» للْوَاقِدِيّ: (٢/ ٤٨٠)، و«الطبقات الكبرىٰ» لابْن سَعْدٍ: (٢/ ٦٩)، و«أنساب الأشراف» للْبَلَاذُرِيُّ: (١/ ٣٤٥)، و«تاريخ الرسل والملوك» للطبري: (٢/ ٥٧٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي: (٣/ ٤٠٤)، و«الاستيعاب» لابْن عَبْد الْبَرّ: (٤/ ١٥٠٨/ رقم: ٢٦٢٩)، و«الروض الأنف» للسُّهَيْلِيُّ: (٦/ ٢٧٨)، و«أسد الغابة» لابْن الْأَثِير: (٥/ ٣٢٨/ رقم: ٥٢٨١)، و«الاكتفاء» للْكَلَاعِيُّ: (١/ ٤٢٨)، و«عيون الأثر» لابْن سَيِّد النَّاس: (٢/ ٩٥)، و«زاد المعاد» لابْن الْقَيِّم: (٣/ ٢٤٤)، و«البداية والنهاية» لابْن كَثِير: (٦/ ٥٩)، و«وفاء الوفاء» للسَّمْهُودِيّ: (١/ ٢٣٥)، و«الدر المنثور» للسيوطي: (٨/ ٩٥)، و«المواهب اللدنية» للْقَسْطَلَّانِيُّ: (٢/ ٢٧).

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ» عَنْ حَدِيثِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١): «ضَعِيفٌ جِدًّا».

وَقَالَ الْعُمَرِيُّ فِي «السِّيرَةِ الصَّحِيحَةِ»: «قِصَّةُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ لَا تَثْبُتُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْحَدِيثِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا اشْتُهِرَتْ فِي كُتُبِ السِّيرَةِ»(٢). (*).

(١) «السِّلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ»: (٨/ ٢٥٣/ رقم: ٣٧٧٧).

(٢) «السِّيرة النَّبَوِيَّة الصَّحِيْحَة» لأكرم ضياء العمري: (٢/ ٤٣٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ» (مُحَاضَرَة: ٦١)، الْأَرْبِعَاءُ ٦ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٤٠هـ| ١٤-١١-٢٠١٨م.

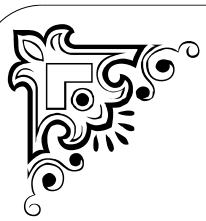

وُقُوعُ الْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ بَيْنَ الْأَحْزَابِ

«فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ وَرُؤُوسُ غَطَفَانَ إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فِي نَفَرَيْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ فَقَالُوا لَهُمْ: «إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ -أَيِ: الْإِبِلُ وَالْخَيْلُ-، فَاغْدُوا لِلْقِتَالِ حَتَّىٰ نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا وَنَفْرُغَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ».

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بَنُو قُرَيْظَةَ: «إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَهُوَ يَوْمٌ لَا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَقَدْ كَانَ أَحْدَثَ فِيهِ بَعْضُنَا حَدَثًا فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكُمْ، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينَ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّىٰ تُعْطُونَا رُهُنًا مِنْ رِجَالِكُمْ، يَكُونُونَ بِأَيْدِينَا ثِقَةً لَنَا حَتَّىٰ نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَإِنَّا نَخْشَىٰ إِنْ ضَرَّسَتْكُمُ الْحَرْبُ وَاشْتَدَّ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ تَنْشَمِرُوا إِلَىٰ بِلَادِكُمْ وَتَتْرُكُونَا وَالرَّجُلُ فِي بَلَدِنَا، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ بِمَا قَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ: «وَاللهِ! إِنَّ الَّذِي حَدَّثَكُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ بَنِي قُرَيْظَةَ: «إِنَّا وَاللهِ! لَا نَدْفَعُ إِلَيْكُمْ رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ رِجَالِنَا، فَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْقِتَالَ فَاخْرُجُوا فَقَاتِلُوا».

فَقَالَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ حِينَ انْتَهَتِ الرُّسُلُ إِلَيْهِمْ بِهَذَا: «إِنَّ الَّذِي ذَكَرَ لَكُمْ

نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ لَحَقٌّ، مَا يُرِيدُ الْقَوْمُ إِلَّا أَنْ تُقَاتِلُوا، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرُ ذَلِكَ انْشَمَرُوا إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ فِي بَلَدِكُمْ».

فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ: «إِنَّا وَاللهِ! لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ مُحَمَّدًا حَتَّىٰ تُعْطُونَا رُهُنًا».

فَأَبَوْا عَلَيْهِمْ، وَخَذَّلَ اللهُ بَيْنَهُمْ، وَيَئِسَ هَؤُلَاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ مِنْ نَصْرِ هَؤُلَاءِ، وَاخْتَلَفَ أَمْرُهُمْ وَتَفَرَّقُوا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ(١): «أَيْ: لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَىٰ مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّىٰ يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ، بَلْ كَفَىٰ اللهُ وَحْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ**». أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٢)»(٣). (*).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ: (رقم: ٤١١٤)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ: بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ: (رقم: ٢٧٢٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٣) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: إِسْلَامُ نُعَيمِ بْنِ مَسْعُودٍ وَخِدَاعُهُ الْمُشْرِكِينَ: (٣/ ١٨٦-١٨٨)، بتصرف يسير.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣٢)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

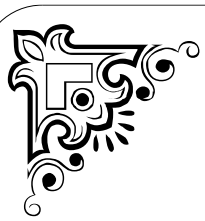

دُعَاءُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ
مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ

«فِي هَذِهِ الْغَمْرَةِ الشَّدِيدَةِ وَالْمَخَاوِفِ الْعَصِيبَةِ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لَا يَنْفَكُّونَ عَنِ الدُّعَاءِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ(١) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْأَحْزَابِ: **اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**».

وَرَوَىٰ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»(٢) بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ لَكِنْ لَهُ شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ يَتَقَوَّىٰ بِهَا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ: «يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؛

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: أَبْوَابُ الِاسْتِسْقَاءِ: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ نُصِرْتُ بِالصَّبَا: (رقم: ١٠٣٥)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابٌ فِي رِيحِ الصَّبَا وَالدَّبُورِ: (رقم: ٩٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (رقم: ١٠٩٩٦)، وابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير: ٦/ ٣٨٨)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث حَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «تَعْلِيقِهِ عَلَىٰ فِقْهِ السِّيرَةِ»: الكفاح الدّامي: غزوة الأحزاب: (ص: ٣٠٦).

فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟».

فَقَالَ ﷺ: «**نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا**».

قَالَ: «فَضَرَبَ اللهُ جَلَّوَعَلَا وُجُوهَ أَعْدَائِهِ بِالرِّيحِ فَهَزَمَهُمُ اللهُ ﷻ بِالرِّيحِ».

كَيْفَ وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ وَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ؟

لَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ الْوَسِيلَةَ الَّتِي الْتَجَأَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ هِيَ هِيَ الَّتِي الْتَجَأَ إِلَيْهَا فِي الْخَنْدَقِ، إِنَّهَا وَسِيلَةُ التَّضَرُّعِ إِلَىٰ اللهِ جَلَّوَعَلَا، **وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ**، بَلْ لَقَدْ كَانَ هُوَ الْعَمَلَ الْمُتَكَرِّرَ الدَّائِمَ الَّذِي ظَلَّ يَفْزَعُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ كُلَّمَا لَقِيَ عَدُوًّا أَوْ سَارَ إِلَىٰ جِهَادٍ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي تَعْلُو فِي تَأْثِيرِهَا عَلَىٰ كُلِّ الْأَسْبَابِ وَالْوَسَائِلِ الْمَادِّيَّةِ الْأُخْرَىٰ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي لَا تَصْلُحُ حَالُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا إِذَا قَامَتْ عَلَىٰ أَسَاسِهَا بِعِنَايَةٍ كَامِلَةٍ.

وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ -تَعَالَىٰ- دُعَاءَ رَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَبَعَثَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ، فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ قُدُورَهُمْ، وَتُطْفِئُ نِيرَانَهُمْ، وَتَهْدِمُ خِيَامَهُمْ، حَتَّىٰ إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَمْ يَكَدْ يَهْتَدِي إِلَىٰ رَحْلِهِ.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ[1] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: أَبْوَابُ الِاسْتِسْقَاءِ: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ نُصِرْتُ بِالصَّبَا: (رقم: ١٠٣٥)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابٌ فِي رِيحِ الصَّبَا وَالدَّبُورِ: (رقم: ٩٠٠).

«نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

وَالصَّبَا: الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ يُقَالُ لَهَا الْقَبُولُ؛ لِأَنَّهَا تُقَابِلُ بَابَ الْكَعْبَةِ إِذْ مَهَبُّهَا مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ، وَضِدَّهَا الدَّبُورُ[1] وَهِيَ الَّتِي أُهْلِكَتْ بِهَا قَوْمُ عَادٍ، وَمِنْ لَطِيفِ الْمُنَاسَبَةِ كَوْنُ الْقَبُولِ نَصَرَتْ أَهْلَ الْقَبُولِ، وَكَوْنُ الدَّبُورِ أَهْلَكَتْ أَهْلَ الْإِدْبَارِ.

أَرْسَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَيْهِمْ مَعَ الرِّيحِ جُنْدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ تُزَلْزِلُهُمْ، وَتُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُ الْأَحْزَابِ رُعْبًا وَخَوْفًا وَهَلَعًا، وَفِي ذَلِكَ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ هُمُ الْمَلَائِكَةُ زَلْزَلَتْهُمْ، وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ، فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ: «يَا بَنِي فُلَانٍ! إِلَيَّ»، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فَيَقُولُ: «النَّجَاءَ النَّجَاءَ»؛ لِمَا أَلْقَىٰ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ.

«وَلَوْلَا أَنْ جَعَلَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَىٰ عَادٍ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءً فَرَّقَ شَمْلَهُمْ، كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَىٰ، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّىٰ أَحْزَابٌ وَآرَاءٌ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءُ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ

---

(١) «العين»: حرف الدال: باب الدال والراء والباء معهما: «الدَّبُورُ: رِيحٌ من قِبَل القِبْلة دابرة نحو المَشرِق، وجمعُه دُبُر»: (٨/ ٣٢).

وَحَنَقِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ مِمَّا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْآثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ، وَهَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ، وَاسْتِئْصَالِ جَيْشِهِ، وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ»[1]»[2].

❀❀❀

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٩٥).

(٢) «اللؤلؤ المكنون» (٣/ ١٨٨-١٩١).

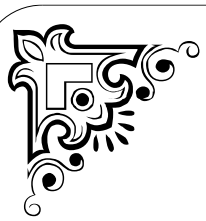

مُهِمَّةُ حُذَيْفَةَ الِاسْتِخْبَارَاتِيَّةُ لِلْإِتْيَانِ بِخَبَرِ الْأَحْزَابِ

«فَلَمَّا أَرْسَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ الْأَحْزَابِ الرِّيحَ أَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلًا لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَحْزَابِ، فَأَرْسَلَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»(١) **بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ:** «كَانَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ وَصَحِبْتُمُوهُ؟».

قَالَ: «نَعَمْ يَا ابْنَ أَخِي».

قَالَ: «فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟».

قَالَ: «وَاللهِ! لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ».

قَالَ: «وَاللهِ! لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَلَجَعَلْنَاهُ عَلَىٰ أَعْنَاقِنَا».

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: (رقم: ٢٣٣٣٤)، ومسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ١٧٨٨)، وابن حبان في «الصحيح»: (١٦/ ٦٧/ رقم: ٧١٢٥)، من حديث: حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ: «يَا ابْنَ أَخِي! وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ وَصَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا -وَالْهَوِيُّ بِالْفَتْحِ: الْحِينُ الطَّوِيلُ مِنَ الزَّمَانِ، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِاللَّيْلِ-، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ** -يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَرْجِعَ- **أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ**». رَوَىٰ هَذَا مُسْلِمٌ.

فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعَ** -يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ- **أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟**».

«فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي».

فَقَالَ: «**يَا حُذَيْفَةُ! اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا**».

قَالَ حُذَيْفَةُ: «فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ، لَا تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرًا، وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ».

فَقَالَ حُذَيْفَةُ: «فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَىٰ جَنْبِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟».

قَالَ: «أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ».

ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّكُمْ -وَاللهِ- مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفُّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ».

ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَىٰ ثَلَاثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنِي ثُمَّ شِئْتُ؛ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ».

فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ نَارًا، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: **«وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ»**.

قَالَ حُذَيْفَةُ: «ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَىٰ رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ.

وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ فَانْشَمَرُوا إِلَىٰ بِلَادِهِمْ»[1].

❀❀❀

(١) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: بَعْثُ الرَّسُولِ ﷺ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْأَحْزَابِ: (٣/ ١٩٢-١٩٤)، بتصرف وزيادة التعليق.

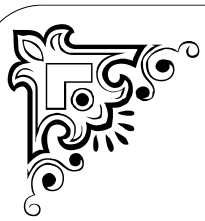

انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ

«فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ وَالْمُسْلِمُونَ وَقَدْ فَتَحَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُمْ، وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ بِجَلَاءِ الْأَحْزَابِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١).

قَالَ الْحَافِظُ(٢): «وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اعْتَمَرَ فِي السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ فَصَدَّتْهُ قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ، وَوَقَعَتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَهُمْ إِلَىٰ أَنْ نَقَضُوهَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ ﷺ.

وَأَخْرَجَ الْبَزَّارُ فِي «الْمُسْنَدِ» بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه **قَالَ**: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ وَقَدْ جَمَعُوا لَهُ جُمُوعًا كَثِيرَةً: لَا يَغْزُونَكُمْ بَعْدَ هَذَا أَبَدًا، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَغْزُونَهُمْ»»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ٤١١٠)، من حديث: سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر: قَوْلُهُ بَابُ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ: (٧/ ٤٠٥).

(٣) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: الرُّجُوعُ مِنَ الْخَنْدَقِ إِلَىٰ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ: (٣/ ١٩٥)، بتصرف وزيادة التعليق.

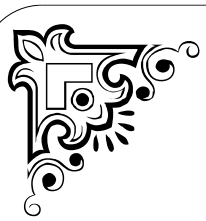

انْصِرَافُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ

«**ثُمَّ أَذِنَ الرَّسُولُ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الِانْصِرَافِ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:** «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»(١).

وَكَانُوا قَدْ أَقَامُوا بِالْخَنْدَقِ مُحَاصَرِينَ فِي شِتَاءٍ بَارِدٍ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَرَجَعُوا مَجْهُودِينَ، وَوَضَعُوا السِّلَاحَ، وَكَانَ انْصِرَافُهُمْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ»(٢).(*).

❀❀❀

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح»: كِتَابُ المَغَازِي: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ٤١١٤)، ومسلم في «الصحيح»: كتاب الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ: بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ: (رقم: ٢٧٢٤) من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) «اللؤلؤ المكنون»: مِنْ بِدَايَةِ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا: الرُّجُوعُ مِنَ الْخَنْدَقِ إِلَىٰ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ: (٣/ ١٩٥)، بتصرف وزيادة التعليق.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣٣)، الِاثْنَيْنِ ٢١ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٤-١-٢٠٢٢م.

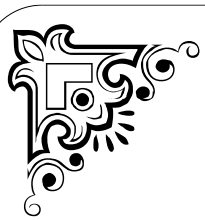

مُلَخَّصُ دَوْرِ الْيَهُودِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ

«لَقَدْ ظَلَّتْ أَحْلَامُ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ يَثْرِبَ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا مِنْ جَدِيدٍ تُرَاوِدُ زُعَمَاءَ خَيْبَرَ الْجُدُدَ مِنْ سَادَاتِ بَنِي النَّضِيرِ الْمَنْفِيِّينَ مِنْ يَثْرِبَ، وَزَادَهُمْ تَشَبُّثًا بِأَحْلَامِهِمْ، وَسُدُورًا فِي غَيِّهِمْ أَنْ رَأَوْا خَيْبَرَ قَدْ دَانَتْ لَهُمْ، فَرَأَوْا حَوْلَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ فِيهَا وَوِحْدَةِ الْكَلِمَةِ مَا لَمْ يَرَوْهُ بَيْنَ بَنِي دِينِهِمْ فِي يَثْرِبَ؛ لِذَلِكَ شَرَعُوا فِي التَّآمُرِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخَذُوا يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِتَهْيِئَةِ ضَرْبَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، قَرَّرُوا أَنْ تَكُونَ قَاتِلَةً لَا حَيَاةَ بَعْدَهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ.

فَلَمْ تَمْضِ عَلَىٰ نُزُولِهِمْ خَيْبَرَ أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّىٰ شَرَعُوا بِالِاتِّفَاقِ مَعَ زُعَمَاءِ خَيْبَرَ فِي إِعْدَادِ خُطَطِ التَّآمُرِ الْجَدِيدَةِ الْمُوَجَّهَةِ ضِدَّ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ فِي يَثْرِبَ، وَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذَا السَّعْيِ وَالْإِعْدَادِ أَنَّهُ لَمْ تَمْضِ عَلَىٰ إِقَامَتِهِمْ فِي مَنْفَاهُمُ الْجَدِيدِ خَيْبَرَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ حَتَّىٰ خَرَجُوا بِمُخَطَّطٍ حَرْبِيٍّ شَامِلٍ رَهِيبٍ، عَلَّقُوا أَمَلَهُمْ فِي الْعَوْدَةِ إِلَىٰ يَثْرِبَ، وَمَحْوِ الْوُجُودِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَىٰ نَجَاحِهِ؛ فَقَدْ أَعَدُّوا لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ نِهَائِيًّا مَشْرُوعَ غَزْوٍ شَامِلٍ كَبِيرٍ يَتَلَخَّصُ فِيمَا يَلِي:

- السَّعْيُ لَدَىٰ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَادِيَةِ لِلْإِسْلَامِ فِي نَجْدٍ وَالْحِجَازِ؛ لِإِثَارَةِ كَوَامِنِ الْحِقْدِ وَالْبُغْضِ فِي نُفُوسِهَا ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَإِغْرَائِهَا بِغَزْوِ الْمَدِينَةِ

لِلسَّلْبِ وَالنَّهْبِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

- وَالِاتِّصَالُ بِزُعَمَاءِ وَقَادَةِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْقَوِيَّةِ، وَدَعْوَتُهُمْ، وَإِغْرَاؤُهُمْ بِالرِّشْوَةِ وَالْوُعُودِ لِإِنْشَاءِ قُوَّةٍ عَرَبِيَّةٍ وَثَنِيَّةٍ ضَارِبَةٍ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ الْمُخْتَلِفَةِ، تَتَّحِدُ فِي جَيْشٍ وَاحِدٍ كَبِيرٍ تَحْتَ قِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ.

- عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ الْهَدَفُ الرَّئِيسُ لِهَذِهِ الْقُوَّةِ الضَّارِبَةِ غَزْوَ الْمَدِينَةِ، وَاجْتِثَاثَ جُذُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَحْوَ كِيَانِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا مَحْوًا تَامًّا.

- وَالِاتِّصَالُ بِزُعَمَاءِ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ الْبَاقِينَ فِي يَثْرِبَ، وَعَدَدُ الْمُقَاتِلِينَ فِيهِمْ حَوَالَي الْأَلْفِ؛ لِإِقْنَاعِهِمْ بِالْمُوَافَقَةِ عَلَىٰ مَشْرُوعِ غَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، وَالِانْضِمَامِ إِلَىٰ الْجُيُوشِ الْغَازِيَةِ إِبَّانَ وُصُولِهَا ضَوَاحِيَ الْمَدِينَةِ، مَعَ التَّأْكِيدِ لِزُعَمَاءِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَادِيَةِ الْغَازِيَةِ بِأَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ سَيَكُونُونَ لَهُمْ عَوْنًا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ سَاعَةَ شُرُوعِهِمْ فِي غَزْوِهِمْ.

وَعَلَىٰ أَسَاسِ هَذَا الْمُخَطَّطِ خَرَجَ مِنْ خَيْبَرَ وَفْدٌ يَضُمُّ زُعَمَاءَ الْيَهُودِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهِمْ قَادَةُ بَنِي النَّضِيرِ الْمَنْفِيِّينَ مِنْ يَثْرِبَ، يَقْدُمُهُمْ رَأْسُ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، خَرَجَ هَذَا الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مِنْ خَيْبَرَ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ بِقَصْدِ الدِّعَايَةِ لِهَذَا الْمَشْرُوعِ، وَتَحْقِيقِهِ بَيْنَ الْعَرَبِ الْوَثَنِيِّينَ فِي نَجْدٍ وَالْحِجَازِ، وَكَانَتِ الْوِجْهَةُ الْأُولَىٰ لِهَذَا الْوَفْدِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةَ؛ حَيْثُ وَصَلَ إِلَيْهَا، وَأَجْرَىٰ مُحَادَثَاتٍ مَعَ زُعَمَائِهَا الْمُشْرِكِينَ حَوْلَ مَشْرُوعِ الْغَزْوِ الْمُخَطَّطِ لَهُ فِي خَيْبَرَ، وَقَدْ لَقِيَ هَذَا الْمَشْرُوعُ كُلَّ التَّرْحِيبِ وَالتَّأْيِيدِ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ، وَلَمْ

يَخْرُجِ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مِنْ مَكَّةَ حَتَّىٰ ضَمِنَ تَأْيِيدَ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ الْمَشْرُوعِ الْعُدْوَانِيِّ بَعْدَ أَنِ اتَّفَقَ مَعَهُمْ عَلَىٰ الْمِيعَادِ الْمُحَدَّدِ لِهَذَا الْغَزْوِ.

وَبَعْدَ أَنْ نَالَ الْمَشْرُوعُ الْيَهُودِيُّ الْمُوَافَقَةَ التَّامَّةَ مِنْ قِبَلِ زُعَمَاءِ مَكَّةَ اتَّجَهَ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ نَاحِيَةَ قَبَائِلِ نَجْدٍ مِنْ غَطَفَانَ، وَفَزَارَةَ، وَأَشْجَعَ، وَمُرَّةَ، وَلَدَىٰ وُصُولِ الْوَفْدِ إِلَىٰ دِيَارِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ عَرَضَ عَلَىٰ زُعَمَائِهَا مَشْرُوعَ الْغَزْوِ الْخَطِيرِ، وَبَعْدَ مُحَادَثَاتٍ غَيْرِ قَصِيرَةٍ وَافَقَتْ هَذِهِ الْقَبَائِلُ عَلَىٰ الِاشْتِرَاكِ فِي تَنْفِيذِ مَشْرُوعِ الْغَزْوِ الْعُدْوَانِيِّ الْخَطِيرِ، وَلَمْ يَعُدِ الْوَفْدُ الْيَهُودِيُّ مِنْ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ وَنَجْدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَشَدَ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ نَجْدٍ، تَحَرَّكَتْ كُلُّ هَذِهِ الْأُلُوفِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ لِغَزْوِهَا، وَسَحْقِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَكَانَتْ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ الشَّهِيرَةُ.

وَهَكَذَا فَـ(غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ) الرَّهِيبَةُ الْمَخُوفَةُ تِلْكَ لَيْسَتْ فِي حَدِّ ذَاتِهَا إِلَّا غَزْوَةً يَهُودِيَّةً صِرْفَةً، خَطَّطَ لَهَا التَّفْكِيرُ الْيَهُودِيُّ فِي خَيْبَرَ، وَقَامَ بِتَمْوِينِهَا الْمَالُ الْيَهُودِيُّ الَّذِي لَا يُنْفَقُ إِنْ أُنْفِقَ إِلَّا فِي إِثَارَةِ الْحُرُوبِ، وَشِرَاءِ الذِّمَمِ لِبَسْطِ النُّفُوذِ الْيَهُودِيِّ.

وَلَقَدْ كَادَ الْيَهُودُ يَنْجَحُونَ فِي تَنْفِيذِ مَشْرُوعِهِمُ الْعُدْوَانِيِّ الْخَبِيثِ لَوْلَا أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- حَالَ دُونَ تَنْفِيذِ هَذَا الْمَشْرُوعِ فِي اللَّحَظَاتِ الْأَخِيرَةِ؛ إِذْ رَدَّ كَيْدَ الْمُعْتَدِينَ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ، وَحَفِظَ -تَعَالَىٰ- نَبِيَّهُ وَصَحْبَهُ، فَعَادَ الْغُزَاةُ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ وَالِانْدِحَارِ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَنَجَتِ الْمَدِينَةُ مِنْ خَطَرِ الِاحْتِلَالِ؛

حَيْثُ انْسَحَبَتْ جُيُوشُ الْأَحْزَابِ الْغَازِيَةِ بَعْدَ حِصَارٍ دَامَ حَوَالَيْ شَهْرٍ دُونَ أَنْ تُحَقِّقَ أَيَّ هَدَفٍ مِنْ أَهْدَافِهَا الْعُدْوَانِيَّةِ، كَمَا نَالَ الْخَوَنَةُ الْغَادِرُونَ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ جَزَاءَهُمُ الْعَادِلَ الصَّارِمَ فِي غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «وَأَمَّا قُرَيْظَةُ فَكَانَتْ أَشَدَّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَغْلَظَهُمْ كُفْرًا؛ وَلِذَلِكَ جَرَىٰ عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَجْرِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمْ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَالنَّضِيرِ».

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «فَصْلٌ: فِي غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَمَا أَحَلَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ الشَّدِيدِ، مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ وَذَلِكَ لِكُفْرِهِمْ وَنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمُمَالَأَتِهِمُ الْأَحْزَابَ عَلَيْهِ، فَمَا أَجْدَىٰ ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا -أَيْ: فَمَا أَغْنَىٰ ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا-، وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَبِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». قَالَ ذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ».

كَانَتْ هُنَاكَ مُعَاهَدَةُ تَحَالُفٍ قَدْ عُقِدَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ جَمِيعًا، تَتَكَوَّنُ هَذِهِ الْمُعَاهَدَةُ مِنْ عِدَّةِ بُنُودٍ، مِنْ بَيْنِهَا بَنْدٌ نَصَّ صَرَاحَةً عَلَىٰ الْتِزَامِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ بِوَاجِبِ الدِّفَاعِ الْمُشْتَرَكِ عَنْ يَثْرِبَ ضِدَّ أَيِّ اعْتِدَاءٍ خَارِجِيٍّ، عِبْءُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَسْؤُولِيَّةِ هَذَا الدِّفَاعِ كَعِبْءِ الْيَهُودِ تَمَامًا، كَمَا نَصَّتْ هَذِهِ

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٥٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٧٠).

الْمُعَاهَدَةُ -أَيْضًا- عَلَىٰ وُجُوبِ الْتِزَامِ الْفَرِيقَيْنِ بِالتَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وَالتَّعَهُّدِ بِعَدَمِ اعْتِدَاءِ أَحَدِهِمَا عَلَىٰ الْآخَرِ فِي الدَّاخِلِ.

وَكَانَ الْمَفْرُوضُ طِبْقًا لِهَذِهِ الْمُعَاهَدَةِ أَنْ يَنْضَمَّ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَىٰ جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْمَدِينَةِ عِنْدَمَا أَحَاطَتْ بِهَا جُيُوشُ الْأَحْزَابِ، وَأَنْ يَكُونُوا ضِمْنَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُوَاجَهَةِ تِلْكَ الْجُيُوشِ الْغَازِيَةِ الْمُعْتَدِيَةِ.

وَلَكِنَّ الَّذِي حَدَثَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ هُوَ الْعَكْسُ، فَقَدْ غَدَرَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ بِالْمُسْلِمِينَ، وَحَاوَلُوا ضَرْبَ جَيْشِهِمْ مِنَ الْخَلْفِ فِي أَحْرَجِ الظُّرُوفِ، وَأَدَقِّ سَاعَاتِ الْمَصِيرِ؛ حَيْثُ أَعْلَنَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ بَدَلًا مِنْ قِيَامِهِمْ بِالْتِزَامَاتِ الْمُعَاهَدَةِ؛ أَعْلَنُوا انْضِمَامَهُمْ إِلَىٰ الْغُزَاةِ الْمُعْتَدِينَ فِي تِلْكَ السَّاعَاتِ الرَّهِيبَةِ الْحَاسِمَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مَصِيرُ كُلِّ الْكِيَانِ الْإِسْلَامِيِّ فِي مَهَبِّ الْعَاصِفَةِ؛ حَيْثُ كَانَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ الصَّغِيرُ لَا يَزِيدُ عَدَدُهُ عَلَىٰ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، يُوَاجِهُ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ يَفُوقُونَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَادِّيٍّ، قَدْ أَحَاطُوا بِهِ كَمَا يُحِيطُ الْبَحْرُ الْهَادِرُ بِالْجَزِيرَةِ الصَّغِيرَةِ، وَيُهَدِّدُهَا بِالِابْتِلَاعِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

لَقَدْ غَدَرَ بَنُو قُرَيْظَةَ بِالْمُسْلِمِينَ تِلْكَ الْغَدْرَةَ الشَّنْعَاءَ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِشَرَفِ الْكَلِمَةِ الَّتِي أَعْطَوْهَا لَهُمْ بِتَوْقِيعِهِمْ عَلَىٰ مُعَاهَدَةِ التَّحَالُفِ تِلْكَ، وَلَا مُقَدِّرِينَ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْغَدْرِ الشَّنِيعِ مِنْ نَتَائِجَ خَطِيرَةٍ، غَدَرُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَخَانُوهُمْ فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ الْحَرْبِيَّةِ الْخَانِقَةِ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ بِاعْتِرَافِ زَعِيمِهِمْ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ لَمْ يَرَوْا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَّا الصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ، وَالْوُقُوفَ بِشَرَفٍ عِنْدَ الْكَلِمَةِ الَّتِي أَعْطَوْهَا فِي عَهْدِ التَّحَالُفِ الْمُبْرَمِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ.

فَضَرَبَ بَنُو قُرَيْظَةَ بِذَلِكَ أَعْلَىٰ رَقْمٍ قِيَاسِيٍّ فِي دُنْيَا الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، فَأَعْطَوُا الدَّلِيلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ عَلَىٰ خُبْثِ مَعْدَنِهِمْ، وَعَلَىٰ اللُّؤْمِ وَالنَّذَالَةِ وَالْخِسَّةِ الْمُتَأَصِّلَةِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَالسَّابِحَةِ فِي كِيَانِهِمْ سَبْحَ الدَّمِ فِي شَرَايِينِهِمْ، وَعَلَىٰ أَنَّ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ عِنْدَهُمْ لَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا احْتِرَامَ؛ إِلَّا عِنْدَمَا يَكُونُ فِي الِالْتِزَامِ بِهَا وَفِي تَنْفِيذِهَا مَصْلَحَةٌ لَهُمْ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ، وَمُحَاوَلَةً لِإِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَهُ الْيَهُودُ أَرْسَلَ وَفْدًا إِلَيْهِمْ لِيُذَكِّرَهُمْ بِالْعَهْدِ، وَيُطَالِبَهُمْ بِالْوَفَاءِ بِهِ، وَالْقِيَامِ بِتَنْفِيذِ الْتِزَامَاتِهِ، وَهَذَا الْوَفْدُ وَصَلَ فِعْلًا إِلَىٰ دِيَارِ بَنِي قُرَيْظَةَ بِرِئَاسَةِ حَلِيفِهِمْ سَيِّدِ الْأَوْسِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَذَكَّرَهُمْ وَنَصَحَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مَغَبَّةَ الْإِصْرَارِ عَلَىٰ السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَنَبَّهَهُمْ بِصِدْقٍ إِلَىٰ مَا قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ نَتَائِجَ وَخِيمَةٍ قَدْ يَكُونُ فِيهَا إِبَادَتُهُمْ جَمِيعًا.

وَهَؤُلَاءِ الْيَهُودُ قَدْ رَدُّوا هَذَا الْوَفْدَ رَدًّا قَبِيحًا، وَأَعْلَنُوا فِي صَفَاقَةٍ وَوَقَاحَةٍ أَنَّهُمْ لَنْ يَتَرَاجَعُوا عَنْ مَوْقِفِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ الَّذِي أَعْلَنُوهُ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا حَرْبًا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا، وَلَمْ يَعُدْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَيُّ عَهْدٍ أَوْ حِلْفٍ، وَبَدَأُوا بِالْفِعْلِ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِلْهُجُومِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ حَسَبَ الْخُطَّةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا مَعَ الْغُزَاةِ، وَبَدَءُوا يَمُدُّونَ الْغُزَاةَ بِالْمُؤَنِ كَدَلِيلٍ عَمَلِيٍّ عَلَىٰ انْضِمَامِهِمْ إِلَيْهِمْ ضِدَّ مُوَاطِنِيهِمْ وَحُلَفَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ.

لَقَدِ اعْتَبَرَ بَنُو قُرَيْظَةَ وُجُودَ جُيُوشِ الْأَحْزَابِ الضَّارِبَةِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فُرْصَةً ثَمِينَةً لِلتَّعْجِيلِ بِسَحْقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِبَادَتِهِمْ إِبَادَةً كَامِلَةً، وَمَا كَانُوا

يَشُكُّونَ لَحْظَةً إِذِ ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوا فِي أَنَّ جُيُوشَ الْأَحْزَابِ قَادِرَةٌ كُلَّ الْمَقْدِرَةِ عَلَىٰ إِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمُ اسْتِئْصَالًا كَامِلًا، وَلِذَلِكَ لَمْ يَتَوَرَّعُوا عَنْ الِانْضِمَامِ إِلَىٰ الْغُزَاةِ؛ إِذْ فَعَلُوا ذَلِكَ غَيْرَ مُبَالِينَ بِمَا أَعْطَوْا مِنْ عُهُودٍ، وَأَبْرَمُوا مِنْ مَوَاثِيقَ.

وَقَدِ انْتَهَىٰ ذَلِكَ الْغَزْوُ الْمَخُوفُ بِانْسِحَابِ الْأَحْزَابِ دُونَ أَنْ تَتَمَكَّنَ قُوَّاتُهُمْ مِنَ اقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ، وَدُونَ أَنْ تُحَقِّقَ أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الْأَهْدَافِ الَّتِي جَاءَتْ لِتَحْقِيقِهَا، وَتُرِكَ بَنُو قُرَيْظَةَ وَحْدَهُمْ فِي الْمَيْدَانِ لِيُوَاجِهُوا الْمَصِيرَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ خَائِنٍ وَغَادِرٍ وَنَاكِثٍ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ (غَزْوَةَ بَنِي قُرَيْظَةَ) فِي حَدِّ ذَاتِهَا هِيَ امْتِدَادٌ لِمَعْرَكَةِ الْأَحْزَابِ؛ فَقَدْ كَانَ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ يُمَثِّلُونَ الْجَنَاحَ الثَّالِثَ لِلِاتِّحَادِ الْعَسْكَرِيِّ الْوَثَنِيِّ الْيَهُودِيِّ الَّذِي قَامَ لِسَحْقِ الْمُسْلِمِينَ وَإِبَادَتِهِمْ إِبَادَةً كَامِلَةً؛ فَبَنُو قُرَيْظَةَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ ارْتِكَابِهِمْ جَرِيمَةَ الْخِيَانَةِ الْعُظْمَىٰ يُعْتَبَرُونَ غُزَاةً مُحَارِبِينَ بِانْضِمَامِهِمْ إِلَىٰ جُيُوشِ الْأَحْزَابِ الْغَازِيَةِ، وَإِعْلَانِهِمْ أَنَّهُمْ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْهُمْ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَمُبَاشَرَتِهِمْ بِالْفِعْلِ التَّحَرُّكَ لِضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخَلْفِ مُسَانَدَةً لِلْغُزَاةِ، وَقِيَامِهِمْ -أَيْضًا- بِمَدِّ هَؤُلَاءِ الْغُزَاةِ بِالتَّمْوِينَاتِ.

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ مَعْرَكَةَ الْأَحْزَابِ عِنْدَمَا انْتَهَتْ بِذَلِكَ النَّصْرِ الْمُؤَزَّرِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ بِانْدِحَارِهِمْ وَانْسِحَابِهِمْ خَائِبِينَ لَمْ يُحَقِّقُوا شَيْئًا مِنْ أَهْدَافِ غَزْوِهِمْ.. هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ عِنْدَمَا انْتَهَتْ بِانْدِحَارِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا انْتَهَتْ فَقَطْ

بِالنِّسْبَةِ لِجَنَاحَيْنِ مِنْ أَجْنِحَةِ ذَلِكَ الِاتِّحَادِ الْوَثَنِيِّ الْيَهُودِيِّ، وَهُمَا جَنَاحَا قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ اللَّذَيْنِ انْشَمَرَتْ حُشُودُهُمُ الضَّخْمَةُ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ، وَعَادَتْ إِلَىٰ دِيَارِهَا مُجَلَّلَةً بِعَارِ أَشْنَعِ هَزِيمَةٍ فِي تَارِيخِهَا الْعَسْكَرِيِّ الطَّوِيلِ بَعْدَ حِصَارٍ رَهِيبٍ مُزْعِجٍ مَخُوفٍ دَامَ شَهْرًا كَامِلًا.

أَمَّا الْجَنَاحُ الثَّالِثُ مِنْ أَجْنِحَةِ هَذَا الِاتِّحَادِ الْمَخُوفِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ الَّذِينَ سَجَّلُوا بِصَنِيعِهِمْ ذَاكَ أَخَسَّ وَأَشْنَعَ جَرِيمَةٍ فِي تَارِيخِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ، فَلَمْ يَنْتَهِ الْحِسَابُ مَعَهُ بَعْدُ»[1].(*).

❀❀❀

(١) «من معارك الإسلام الفاصلة» (٤/ ١٣٢-١٤١) بتصرف.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ» (مُحَاضَرَة: ١٣٤)، الثُّلَاثَاءُ ٢٢ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَةِ ١٤٤٣هـ| ٢٥-١-٢٠٢٢م.

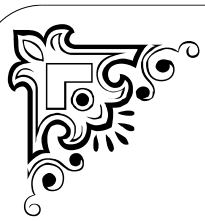

غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ.. النَّتَائِجُ وَالدُّرُوسُ

«بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مَعْرَكَةَ الْأَحْزَابِ هِيَ أَخْطَرُ غَزْوَةٍ يَتَعَرَّضُ لَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي تَارِيخِهِمْ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا مِنْ أَشَدِّ مَا شَهِدَ الْمُسْلِمُونَ فِي عَمَلِيَّاتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ وَالتَّعَبُ وَالرُّعْبُ وَالْإِرْهَاقُ؛ فَإِنَّ قَتْلَىٰ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا لَمْ يَزِيدُوا عَلَىٰ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وَجَرِيحَيْنِ.

فَقَدْ كَانَ كُلُّ شُهَدَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ ثَمَانِيَةً فَقَطْ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ إِذْ لَمْ يُقْتَلْ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ»(١).

«أَمَّا الْقَتْلَىٰ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ فَرَغْمَ كَثْرَةِ الْمُنَاوَشَاتِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا جُمُوعُ الْأَحْزَابِ، وَرَغْمَ كَثْرَتِهِمْ، فَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يُقْتَلْ مِنْهُمْ سِوَىٰ ثَلَاثَةٍ فَقَطْ، وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ»(٢).

وَيُمْكِنُ أَنْ نُرْجِعَ سَبَبَ قِلَّةِ الْقَتْلَىٰ مِنَ الْجَانِبَيْنِ إِلَىٰ أَنَّ وُجُودَ الْخَنْدَقِ كَانَ

---

(١) «موسوعة الغزوات الكبرىٰ»: غزوة الأحزاب: الفصل الخامس: عدد شهداء المسلمين: (٢/ ٢٣٧).

(٢) «سيرة ابن إسحاق- رواية البكائي»: (٢/ ٢٥٣- تهذيب ابن هشام).

لَهُ سَبَبٌ مُبَاشِرٌ بَعْدَ اللهِ جَلَّوَعَلَا؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ تَخَوَّفُوا مِنْ هَذِهِ الْمَكِيدَةِ، وَلَمْ يُقْتَلْ إِلَّا مَنِ اقْتَحَمَ أَوِ اقْتَرَبَ كَمَا فَعَلَ نَوْفَلٌ وَعَمْرُو بْنُ وُدٍّ.

وَالْخَنْدَقُ فِي الْحَقِيقَةِ نَصْرٌ مِنَ اللهِ؛ حَيْثُ أَلْهَمَهُمُ اللهُ حَفْرَهُ، وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ سُرْعَةِ إِنْجَازِهِ، فَكَانَ حَاجِزًا حَصِينًا، وَلِكَيْ يُبَيِّنَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- لِأَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللهِ وَلَيْسَ بِالْكَثْرَةِ، وَأَنَّهُ مَتَىٰ كَانَ اللهُ -تَعَالَىٰ- مَعَ فِئَةٍ وَلَوْ كَانَتْ قَلِيلَةً تَكُونُ لَهَا الْغَلَبَةُ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ وَالْعُقْبَىٰ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ الْفِئَةَ الْقَلِيلَةَ تُقَاتِلُ عَنْ عَقِيدَةٍ سَامِيَةٍ وَمَبْدَأٍ عَظِيمٍ، أَلَا وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمُ»(١).

*** عَدَمُ قِيَامِ رِجَالِ غَطَفَانَ بِأَيِّ دَوْرٍ فِي الْمَعْرَكَةِ قَادَةً وَجُنُودًا:**

«وَمِنَ اسْتِعْرَاضِ جَمِيعِ أَدْوَارِ الْمَعْرَكَةِ لَمْ يُرَ لِأَيٍّ مِنْ رِجَالِ غَطَفَانَ قَادَةً وَجُنُودًا أَيُّ نَشَاطٍ حَرْبِيٍّ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَحْزَابِ، فَكُلُّ الَّذِينَ قَامُوا بِقَفْزِ الْخَنْدَقِ بِخَيْلِهِمْ هُمْ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ غَطَفَانِيٌّ وَاحِدٌ.

كَمَا أَنَّ كُلَّ الْقَادَةِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا بِالتَّنَاوُبِ عَمَلِيَّةَ إِرْهَابِ الْمُسْلِمِينَ وَإِزْعَاجِهِمْ بِالطَّوَافِ بِكَتَائِبِهِمْ حَوْلَ الْخَنْدَقِ لَيْلًا وَنَهَارًا هُمْ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَطْ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ قَائِدٌ غَطَفَانِيٌّ وَاحِدٌ.

---

(١) «مرويات غزوة الخندق»: الباب الخامس: المبحث الثالث: القتلىٰ من الجانبين: (٣١٨- ٣٢٠)، بتصرف يسير.

كَمَا أَنَّ التَّارِيخَ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ كَانَ ضِمْنَ جُنُودِ هَؤُلَاءِ الْقَادَةِ الْقُرَشِيِّينَ جُنْدِيٌّ غَطَفَانِيٌّ وَاحِدٌ، فَمَا هُوَ السَّبَبُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْمُتَكَاسِلِ الَّذِي وَقَفَتْهُ قَبَائِلُ غَطَفَانَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْكَبِيرَةِ؟!

الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ هُنَاكَ سَبَبًا رَئِيسًا وَاحِدًا، وَهُوَ أَنَّ قِيَادَةَ غَطَفَانَ قَدْ يَئِسَتْ بَعْدَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ مِنَ احْتِلَالِ الْمَدِينَةِ إِلَّا بَعْدَ تَضْحِيَاتٍ جَسِيمَةٍ بَاهِظَةٍ.

وَلَمْ تَكُنْ غَطَفَانُ تَحْمِلُ عَقِيدَةً صَافِيَةً تَصِلُهَا بِاللهِ تَسْتَعْذِبُ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِهَا، وَتُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقَتْلَ تَحْتَ لِوَائِهَا شَهَادَةٌ تَرْتَفِعُ بِقَتْلَاهَا إِلَىٰ دَرَجَةِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ حَتَّىٰ تُخَاطِرَ بِأَرْوَاحِهَا فَتَقْتَحِمَ الْخَنْدَقَ غَيْرَ مُبَالِيَةٍ بِمَا يُصِيبُهَا مِنْ قَتْلٍ وَجَرْحٍ كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ.

بَلْ لَمْ تَكُنْ غَطَفَانُ عَلَىٰ مَا يَظْهَرُ تَحْمِلُ لِلْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ الْعَدَاءَ الْعَقَائِدِيَّ الْمُتَأَصِّلَ الَّذِي تَحْمِلُهُ يَهُودُ وَتَحْمِلُهُ قُرَيْشٌ، وَإِنَّمَا كُلُّ رِجَالِ غَطَفَانَ أَعْرَابٌ خُلَّصٌ لَا يَعْرِفُونَ لِلْغَزَوَاتِ وَالْحُرُوبِ مَعْنًىٰ إِلَّا أَنَّهَا وَسِيلَةٌ فَقَطْ لِلنَّهْبِ وَالسَّلْبِ وَالْحُصُولِ عَلَىٰ الْمَغْنَمِ الْمَادِّيِّ بِأَقَلِّ خَسَائِرَ مُمْكِنَةٍ، الْأَمْرُ الَّذِي كَانَ أَعْرَابُ غَطَفَانَ يُمَنُّونَ النَّفْسَ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ عِنْدَمَا تَحَرَّكَتْ جُمُوعُهُمُ الْغَفِيرَةُ مِنْ مَضَارِبِهَا فِي صَحَارِي نَجْدٍ لِلْمُشَارَكَةِ فِي غَزْوِ الْمَدِينَةِ.

وَحَيْثُ أَنَّ هَذِهِ الْمَكِيدَةَ الْحَرْبِيَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي مَا كَانَ الْعَرَبُ يَكِيدُونَهَا -وَهِيَ الْخَنْدَقُ- قَدْ جَعَلَتْ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْحُصُولَ عَلَىٰ الْمَغْنَمِ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي أَلِفُوهَا وَاعْتَادُوهَا فِي حُرُوبِهِمُ الْمَكْشُوفَةِ الْخَاطِفَةِ

الَّتِي لَا تَسْتَغْرِقُ إِلَّا سَاعَاتٍ قَلَائِلَ وَبِصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ، وَرَأَوْا أَنَّ احْتِلَالَ الْمَدِينَةِ الَّتِي يَحْلُمُونَ بِغَنَائِمِهَا لَنْ يَكُونَ إِذَا مَا نَجَحُوا فِيهِ إِلَّا بَعْدَ مُغَامَرَةٍ خَطِيرَةٍ يُكَلِّفُهُمُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهَا مِئَاتِ الْقَتْلَىٰ، مِمَّا يَجْعَلُ الْمَغْنَمَ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ يَتَلَاشَىٰ فِي حِسَابِهِمُ الْمَادِّيِّ أَمَامَ هَذِهِ التَّضْحِيَاتِ الْجِسَامِ الَّتِي يَبْذُلُونَهَا مِنَ الرِّجَالِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ هَذَا الْمَغْنَمِ الْمَادِّيِّ، فَإِنَّهُمْ آثَرُوا السَّلَامَةَ عَلَىٰ الْمَغْنَمِ الْمَحْفُوفِ بِكُلِّ هَذِهِ الْمَخَاطِرِ الْجِسَامِ.

فَمِنْ هُنَا -وَاللهُ أَعْلَمُ- جَاءَ إِحْجَامُ غَطَفَانَ قِيَادَةً وَجُنْدًا عَنِ الْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَلٍ حَرْبِيٍّ يُعَرِّضُ أَرْوَاحَهُمْ لِلْخَطَرِ فِي هَذَا الْغَزْوِ الْكَبِيرِ الَّذِي مَا شَارَكُوا فِيهِ إِلَّا لِلْحُصُولِ عَلَىٰ الْغَنَائِمِ وَالْغَنَائِمِ فَقَطْ.

وَحَيْثُ أَنَّ هَذَا أَصْبَحَ مُسْتَحِيلًا بَعْدَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، فَلَا دَاعِيَ لِأَنْ يَتَعَرَّضَ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ لِلْقَتْلِ أَوِ الْجَرْحِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَتَّفِقُ تَمَامًا مَعَ مَنْطِقِ الْأَهْدَافِ الصَّغِيرَةِ الضَّيِّقَةِ الْمَحْدُودَةِ الَّتِي جَاءَ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ لِتَحْقِيقِهَا»[1].

*** أَهَمُّ أَسْبَابِ فَشَلِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ:**

«نَتِيجَةُ الْمَعْرَكَةِ فَشَلٌ تَامٌّ لِقُرَيْشٍ بِقِيَادَةِ أَبِي سُفْيَانَ وَحُلَفَائِهَا، وَنَصْرٌ لِلْمُسْلِمِينَ بِقِيَادَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

---

(١) «موسوعة الغزوات الكبرىٰ»: غزوة الأحزاب: الفصل السادس: السبب الرئيسي: (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٨)، بتصرف يسير.

وَيُمْكِنُ اخْتِصَارُ أَهَمِّ أَسْبَابِ فَشَلِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا يَلِي:

أَوَّلًا: عَدَمُ وِحْدَةِ الْقِيَادَةِ وَاخْتِلَافُ أَهْدَافِ الْمُهَاجِمِينَ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَهْدِفُ إِلَىٰ الْقَضَاءِ عَلَىٰ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَغَطَفَانُ تَأْمُلُ نَهْبَ الْمَدِينَةِ وَتَأْمُلُ فَرْضَ إِتَاوَةٍ عَلَىٰ أَهْلِهَا.

يُفَسِّرُ ذَلِكَ مُوَافَقَتُهُمْ عَلَىٰ الِانْسِحَابِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ مُقَابِلَ ثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْأَنْصَارُ -كَمَا مَرَّ-.

وَيَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ تَرَدَّدُوا كَثِيرًا حَتَّىٰ وَافَقُوا عَلَىٰ مُخَطَّطِ أَبْنَاءِ دِينِهِمْ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ أُجْلُوا عَنِ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ خَيْبَرَ وَغَيْرِهَا.

وَقَدِ امْتَازُوا بِالتَّرَدُّدِ وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِحُلَفَائِهِمْ مِنْ أَوَّلِ الْحِصَارِ حَتَّىٰ آخِرِهِ، وَكَانُوا يَأْمُلُونَ أَنْ يَقْضِيَ الْأَحْزَابُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ دُونَ أَيَّةِ تَضْحِيَاتٍ فِعْلِيَّةٍ مِنَ الْيَهُودِ فِي الْمَعْرَكَةِ.

ثَانِيًا: اخْتِيَارُ الْمُسْلِمِينَ مَوْقِفًا دِفَاعِيًّا فِي دَاخِلِ الْمَدِينَةِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ مَوْقِعِ الْمَدِينَةِ الْحَصِينِ طَبِيعِيًّا مِنْ ثَلَاثَةِ اتِّجَاهَاتٍ، نَاهِيكَ عَنِ اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ الْمَوْقِعِ الْحَصِينِ وَاسْتِكْمَالِهِ بِالْخَنْدَقِ الَّذِي كَانَ لَهُ دَوْرَانِ مُهِمَّانِ:

الْأَوَّلُ: حَقَّقَ مُفَاجَأَةً لِلْمُهَاجِمِينَ فَقَلَبَ خُطَطَهُمْ رَأْسًا عَلَىٰ عَقِبٍ.

الثَّانِي: حَرَمَ الْمُهَاجِمِينَ مِنْ خَوْضِ مَعْرَكَةٍ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ كَانُوا يَحْلُمُونَ بِالنَّصْرِ فِيهَا لِتَفَوُّقِهِمُ الْهَائِلِ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ.

ثَالِثًا: مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ فَشَلِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْخَنْدَقِ: طَرِيقَةُ الدِّفَاعِ الْمَرِنَةُ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الرَّسُولُ ﷺ؛ فَقَدْ كَانَتْ قُوَّاتُهُ جَاهِزَةً بِاسْتِمْرَارٍ لِلتَّحَرُّكِ بِاتِّجَاهِ أَيَّةِ ثَغْرَةٍ وَسَدِّهَا بِسُرْعَةٍ، كَمَا أَنَّ انْتِظَامَ الدَّوْرِيَّاتِ وَالْمُرَاقَبَةَ الْمُسْتَمِرَّةَ وَالشَّامِلَةَ حَرَمَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ انْتِهَازِ أَيَّةِ فُرْصَةٍ.

رَابِعًا: مِنْ أَسْبَابِ فَشَلِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْخَنْدَقِ: ثَبَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِمَاتَتُهُمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ مَدِينَتِهِمْ، ظَهَرَ ذَلِكَ بِجَلَاءٍ عِنْدَمَا رَفَضَ سَادَةُ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ دَفْعَ إِتَاوَةٍ مِنْ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ لِزُعَمَاءِ غَطَفَانَ؛ مِمَّا جَعَلَ أُولَئِكَ الزُّعَمَاءَ يُدْرِكُونَ خُطُورَةَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمْ فِيمَا لَوْ وَقَعَتْ، وَرُبَّمَا حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَىٰ تَقْوِيمٍ جَدِيدٍ لِمَوَاقِفِهِمْ.

خَامِسًا: سُوءُ اخْتِيَارِ زَمَانِ الْمَعْرَكَةِ مِنْ قِبَلِ الْمُشْرِكِينَ؛ فَقَدْ كَانَ الشِّتَاءُ قَاسِيًا، وَهُمْ لَمْ يَعْتَادُوا الْبَرْدَ الشَّدِيدَ، وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ تَأْمِينِ الْإِمْدَادَاتِ لِقُوَّاتِهِمُ الْكَبِيرَةِ، وَكَانَ مُقَامُهُمْ فِي الْعَرَاءِ تَحْتَ الْخِيَامِ يَحْرِمُهُمُ الدِّفْءَ الَّذِي تُؤَمِّنُهُ الْأَبْنِيَةُ، وَكَثِيرًا مَا اقْتَلَعَتِ الرِّيَاحُ خِيَامَهُمْ وَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ حَتَّىٰ ضَجُّوا بِمَوْقِفِهِمْ عِنْدَمَا طَالَ الْحِصَارُ دُونَ نَتِيجَةٍ.

وَكَانَ قَرَارُ الِانْسِحَابِ فِي لَحْظَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي اشْتَدَّتْ فِيهَا الرِّيَاحُ وَالْأَعَاصِيرُ، حَتَّىٰ ظَنُّوا الْمَوْتَ آتِيَهُمْ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ.

سَادِسًا: مِنْ أَسْبَابِ فَشَلِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْخَنْدَقِ: الْحَرْبُ النَّفْسِيَّةُ الْمُدَمِّرَةُ

الَّتِي قَادَهَا نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه[١] بِحِنْكَةٍ عَالِيَةٍ تَعْجِزُ عَنْهَا أَرْقَىٰ أَجْهِزَةِ الِاسْتِخْبَارَاتِ الْمُعَاصِرَةِ؛ فَقَدِ اسْتَطَاعَ وَحْدَهُ رضي الله عنه أَنْ يُفَرِّقَ صُفُوفَ الْأَحْزَابِ وَيُزَعْزِعَ الثِّقَةَ فِي نُفُوسِهِمْ، مِمَّا جَعَلَهُمْ يُحْجِمُونَ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْمَعْرَكَةِ وَحَسْمِ الْحِصَارِ بِالْمُوَاجَهَةِ -كَمَا مَرَّ-»[٢].

وَقَدْ مَرَّ أَنَّ قِصَّةَ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه وَكَذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ عَرْضِ ثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ زُعَمَاءِ غَطَفَانَ[٣]، أَنَّ ذَلِكَ لَا يَثْبُتُ حَدِيثِيًّا وَإِنْ أَطْبَقَ عَلَىٰ رِوَايَتِهِ وَذِكْرِهِ أَهْلُ التَّارِيخِ وَالْمَغَازِي وَالسِّيَرِ.

*** مِنْ نَتَائِجِ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ: أَهَمِّيَّةُ تَحْصِينِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ:**

«كَانَ مِنْ نَتَائِجِ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ أَنْ كَشَفَتْ أَهَمِّيَّةَ تَحْصِينِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَضَرُورَةَ التَّنَبُّهِ لِلْمَجْمُوعَاتِ الْمُعَادِيَةِ الَّتِي يُخْرِسُهَا الْخَوْفُ أَثْنَاءَ السِّلْمِ

---

(١) أخرج الواقدي في «المغازي»: (٢/ ٤٨٠)، وابن إسحاق في «السير- رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٩ - تهذيب ابن هشام).

(٢) «قيادة الرسول السياسية والعسكرية» أحمد راتب عرموش: الباب الأول: الفصل الرابع: تحليل المعركة: (ص:٨٤-٨٦)، بتصرف يسير.

(٣) أخرج الواقدي في «المغازي»: (٢/ ٤٧٧)، وابن إسحاق في «السيرة- رواية البكائي»: (٢/ ٢٢٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٣٠): «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَىٰ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَالْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، فَأَعْطَاهُمَا ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ أَنْ يَرْجِعَا وَمَنْ مَعَهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ فَجَرَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الصُّلْحُ، حَتَّىٰ كَتَبُوا الْكِتَابَ، وَلَمْ تَقَعِ الشَّهَادَةُ وَلَا عَزِيمَةُ الصُّلْحِ إِلَّا الْمُرَاوَضَةُ، وَفِي ذَلِكَ فَفَعَلَا».

وَتُحَرِّكُهَا الْأَحْقَادُ عِنْدَ أَوَّلِ فُرْصَةٍ سَانِحَةٍ لِتَكُونَ عَوْنًا لِلْأَعْدَاءِ عَلَىٰ الْحُلَفَاءِ، لِذَلِكَ نَجِدُ الرَّسُولَ ﷺ عَمَدَ إِلَىٰ تَطْهِيرِ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ عَقِبَ فَكِّ الْحِصَارِ مُبَاشَرَةً وَقَبْلَ إِلْقَاءِ السِّلَاحِ»(١).

*** مَبَادِئُ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ، وَشَأْنُهَا فِي تَأْمِينِ سَلَامَةِ الْأُمَّةِ:**

«لَقَدْ كَشَفَتْ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ عَنْ مَبَادِئِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ الَّتِي جَعَلَ الْإِسْلَامُ لَهَا شَأْنًا كَبِيرًا فِي تَأْمِينِ سَلَامَةِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَلِي:

١ - قُوَّةُ الِاسْتِخْبَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَيَقَظَتُهَا.

إِنَّ مُفَاجَأَةَ الْأَعْدَاءِ بِالْخَنْدَقِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَمْرَيْنِ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فِي غَايَةٍ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ مُسَبَّقٍ بِنِيَّاتِ أَعْدَائِهِمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ لِمُهَاجَمَتِهِمْ، وَذَلِكَ بِفَضْلِ قُوَّةِ اسْتِخْبَارَاتِهِمْ وَيَقَظَتِهَا؛ فَفِي مَكَّةَ كَانَ هُنَاكَ الْعَبَّاسُ عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَكْتُبُ إِلَيْهِ أَخْبَارَ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا كَانَتْ خُزَاعَةُ -كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ- «عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا لَا يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ»(٢).

---

(١) «قيادة الرسول السياسية والعسكرية»: الباب الأول: الفصل الرابع: تحليل المعركة: (ص: ٨٦)، بتصرف يسير.

(٢) «البداية والنهاية»: سَنَةُ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: غَزْوَةُ الْحُدَيْبِيَةِ «عُمْرَةُ رَسُولِ اللهِ»: (٦/ ٢١١).

وَقَدْ ذُكِرَ كَيْفَ بَعَثَتْ خُزَاعَةُ إِلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ تُخْبِرُهُ بِعَزْمِ قُرَيْشٍ عَلَىٰ مُهَاجَمَةِ الْمَدِينَةِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: عَجْزُ اسْتِخْبَارَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ الْمُسْتَوَيَيْنِ الِاسْتِرَاتِيجِيِّ وَالتِّكْتِيكِيِّ عَلَىٰ حَدٍّ سَوَاءٍ عَنِ اكْتِشَافِ أَمْرِ الْخَنْدَقِ قَبْلَ وُصُولِهِمْ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، ذَلِكَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حَفْرَهُ اسْتَغْرَقَ فَتْرَةً لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ، وَالْمُدَّةُ الَّتِي اسْتَغْرَقَهَا الْحَفْرُ كَانَتْ كَافِيَةً جِدًّا لِاسْتِخْبَارَاتِ الْمُشْرِكِينَ لَوْ كَانَتْ نَشِطَةً وَيَقِظَةً لِكَشْفِهِ وَالْإِعْلَامِ عَنْهُ.

كَمَا تَدُلُّ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَيْضًا عَلَىٰ نَجَاحِ الِاسْتِخْبَارَاتِ الْوِقَائِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَعَلَىٰ مَدَىٰ كِتْمَانِهِمْ لِسِرِّ خُطَّتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ لِحِرْمَانِ الْعَدُوِّ مِنَ الْحُصُولِ عَلَىٰ مَعْلُومَاتٍ عَنْهَا.

وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ خَبِيرُ الِاسْتِخْبَارَاتِ وَالْجَاسُوسِيَّةِ الْعَالَمِيُّ لَادِسْلَاس فَارَاجُو فِي قَوْلِهِ: «عِنْدَمَا قَرَّرَ الْمَكِّيُّونَ -يَعْنِي: الْقُرَشِيِّينَ- أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ نِهَائِيًّا عَبَّؤُوا ضِدَّهُ قُوَّةً تتكَوَّنُ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ، وَلَمْ يَنْزَعِجِ النَّبِيُّ؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ تَرَكَ فِي مَكَّةَ عُمَلَاءَ أَكْفَاءَ أَبْلَغُوهُ بِخُطَطِ أَعْدَائِهِ، أَمَّا خُصُومُهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُمَلَاءُ عِنْدَهُ، وَلِذَلِكَ فَعِنْدَمَا وَصَلَ الْمَكِّيُّونَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ أَذْهَلَهُمْ أَنْ يَجِدُوا خَنْدَقًا وَجِدَارًا يُحِيطَانِ بِالْمَدِينَةِ تَمَامًا إِحَاطَةَ السِّوَارِ بِالْمِعْصَمِ حَمَيَا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْعُدْوَانِ».

٢- وَمِنْ مَبَادِئِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْهَا غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ لِحِمَايَةِ الْأُمَّةِ: قُوَّةُ وَعْيِ الْأَمْنِ لَدَىٰ الْمُسْلِمِينَ.

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا سَاعَدَ عَلَىٰ نَجَاحِ مُهِمَّةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْغَطَفَانِيِّ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَحَالِفِينَ أَنَّهُ كَتَمَ إِسْلَامَهُ، فَلَمْ يَعْرِفْ قَوْمُهُ غَطَفَانُ وَلَا بَنُو قُرَيْظَةَ وَلَا قُرَيْشٌ عَنْ إِسْلَامِهِ شَيْئًا.

كَمَا كَتَمَ الرَّسُولُ الْقَائِدُ ﷺ هَذَا الْخَبَرَ -أَيْضًا-، وَذَلِكَ تَطْبِيقٌ بَارِعٌ لِمَبْدَأِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ وَكِتْمَانِ الْأَسْرَارِ.

٣- وَمِنْ مَبَادِئِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ: اسْتِخْدَامُ الرَّمْزِ -أَيِ: الشَّفْرَةِ-؛ فَإِنَّهُ لَمَّا انْتَهَىٰ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَبَرُ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ لِلْعَهْدِ أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنَ الْخَبَرِ، فَبَعَثَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ سَيِّدَ الْأَوْسِ وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ سَيِّدَ الْخَزْرَجِ وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟! فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**»، فَوَجَدُوهُمْ عَلَىٰ أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ أَقْبَلُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالُوا: «عَضَلٌ وَالْقَارَةُ!» أَيْ: غَدَرُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارَةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم، فَكَانَ هَذَا رَمْزًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ.

وَأَظْهَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا آخَرَ، فَإِنَّهُ قَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ**

الْمُسْلِمِينَ!»[١].

وَلِلرَّسُولِ ﷺ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فِي اسْتِخْدَامِ هَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي يَضْمَنُ بِهِ سِرِّيَّةَ الْمَعْلُومَاتِ، وَهِيَ وِقَايَةُ الْمُسْلِمِينَ مِمَّا قَدْ يُؤَثِّرُ فِي رُوحِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «**وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ**».

٤- مِنْ مَبَادِئِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ: ضَرُورَةُ مُتَابَعَةِ نَتَائِجِ عَمَلِ الِاسْتِخْبَارَاتِ.

يُقَرِّرُ الرَّسُولُ ﷺ ضَرُورَةَ مُتَابَعَةِ نَشَاطِ الِاسْتِخْبَارَاتِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَىٰ النَّتَائِجِ الَّتِي حَقَّقَهَا، وَهُوَ مَبْدَأٌ مُقَرَّرٌ فِي الْعِلْمِ الْعَسْكَرِيِّ الْحَدِيثِ، فَالرَّسُولُ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَىٰ آثَارِ دَعْوَةِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْغَطَفَانِيِّ الَّتِي اسْتَهْدَفَ بِهَا الْوَقِيعَةَ بَيْنَ الْمُتَحَالِفِينَ.

فَدَعَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَقَالَ لَهُ: «**يَا حُذَيْفَةُ! اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا**»، فَذَهَبَ حُذَيْفَةُ وَدَخَلَ مُعَسْكَرَ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ سَمِعَ أَبَا سُفْيَانَ وَهُوَ يَدْعُو قَوْمَهُ لِلرَّحِيلِ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ نَجَاحَ الْمُهِمَّةَ: وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةُ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ! قَالَ حُذَيْفَةُ: «فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَىٰ رِجْلَيْهِ،

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة-رواية البكائي»: (٢/ ٢٢١ - تهذيب ابن هشام)، والطبري في «تاريخ الرسل والملوك»: (٢/ ٥٧٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة»: (٣/ ٤٠٣).

وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ -أَيِ: الْكِسَاءِ- الَّذِي عَلَيْهِ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ»(١).

٥- وَمِنْ مَبَادِئِ السِّرِّيَّةِ وَالْأَمْنِ الْوِقَائِيِّ الَّتِي كَشَفَتْ عَنْهَا غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ: مَا يَتَعَلَّقُ بِشُرُوطِ اخْتِيَارِ رِجَالِ الِاسْتِخْبَارَاتِ.

يُقَرِّرُ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ هُنَاكَ خَصَائِصَ وَسِمَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ فِي رَجُلِ الِاسْتِخْبَارَاتِ حَتَّىٰ يَنْجَحَ فِي مَهَامِّهِ الدَّقِيقَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْخَصَائِصِ: حُبُّ الِاسْتِطْلَاعِ، وَالْكِتْمَانُ الشَّدِيدُ، وَحُضُورُ الْبَدِيهَةِ، وَالذَّكَاءُ الْخَارِقُ، وَعَدَمُ الِارْتِبَاكِ فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرِجَةِ أَوِ الْمُفَاجِئَةِ، وَسُرْعَةُ التَّخَلُّصِ مِنَ الْمَآزِقِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ اخْتِيَارُهُ ﷺ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه لِيَدْخُلَ إِلَىٰ صُفُوفِ الْأَعْدَاءِ خِلَالَ الْمَعْرَكَةِ لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِهِمْ، فَقَدْ عَرَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْأَمْرَ فِي الْبِدَايَةِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ: «**مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟!**»، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ؛ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَالْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَا ﷺ حُذَيْفَةَ وَكَلَّفَهُ بِالْمُهِمَّةِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ حُذَيْفَةُ كَفَاءَتَهُ الْفَائِقَةَ فِي الْعَمَلِ كَرَجُلِ اسْتِخْبَارَاتٍ فِي الْمَهَامِّ الدَّقِيقَةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَرَّضَ أَثْنَاءَ وُجُودِهِ فِي صُفُوفِ وَمُعَسْكَرِ قُرَيْشٍ

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح»: كِتَابُ الْجِهَادِ: بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَق: (رقم: ١٧٨٨)، من حديث: حُذَيْفَةَ رضي الله عنه.

لِمَوْقِفٍ مُفَاجِئٍ شَدِيدِ الْحَرَجِ، لَكِنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْهُ بِذَكَائِهِ وَسُرْعَةِ تَصَرُّفِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سُفْيَانَ يَقُولُ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ!» أَيْ: لِيَتَعَرَّفْ كُلُّ رَجُلٍ عَلَىٰ مَنْ يَجْلِسُ بِجِوَارِهِ، وَذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يَنْدَسَّ فِي صُفُوفِهِمْ أَحَدٌ مِنْ مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي وَقْتِ اشْتِدَادِ الرِّيحِ، قَالَ حُذَيْفَةُ: «فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ إِلَىٰ جَنْبِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟! قَالَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ».

وَوَرَدَ فِي «**شَرْحِ الْمَوَاهِبِ**»: «فَضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَىٰ الَّذِي عَنْ يَمِينِي فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟! قَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، ثُمَّ ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَىٰ الَّذِي عَنْ شِمَالِي فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟! قَالَ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ»(١).

بِهَذَا التَّصَرُّفِ الذَّكِيِّ اللَّوْذَعِيِّ السَّرِيعِ أَبْعَدَ حُذَيْفَةُ التُّهْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ، إِذْ سَارَعَ وَبَادَرَ جَلِيسَيْهِ بِالسُّؤَالِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَاهُ، وَلَوْ لَمْ يَتَصَرَّفْ حُذَيْفَةُ بِمِثْلِ تِلْكَ السُّرْعَةِ وَأَصَابَهُ الِارْتِبَاكُ لَانْكَشَفَ أَمْرُهُ، وَلَضَاعَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ الْهَدَفُ الَّذِي أَرْسَلُوهُ مِنْ أَجْلِهِ»(٢).

*** الدَّوْرُ التَّخْرِيبِيُّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ:**

وَأَمَّا خَطَرُ الْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ الْجَيْشِ فَقَدِ انْتَبَهَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ

---

(١) شرح الزرقاني علىٰ «**المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**»: كتاب المغازي: غزوة الخندق: (٣/ ٥٣).

(٢) «غزوة الخندق والتصميم الهندسي للدفاع عن المدينة» لمحمد جمال الدين محفوظ: (ص:١٤٩-١٥٢): مجلة مركز البحوث والسيرة: العدد الرابع: (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

تُوَضِّحُ الدَّوْرَ التَّخْرِيبِيَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ وَفِي كُلِّ حِينٍ، وَفِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّخْصِيصِ.

«**قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «سِيرَتِهِ»**(١): لَقَدْ جَدَّ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعَمَلِ وَدَأَبُوا، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا انْتَابَتْهُ النَّائِبَةُ مِنَ الْحَاجَةِ ذَهَبَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ حَاجَتَهُ عَادَ إِلَىٰ عَمَلِهِ فِي الْخَنْدَقِ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ.

لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُثَبِّطِينَ لِلْهِمَمِ تَبَاطَؤُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَجَعَلُوا يُوَرُّونَ بِالضَّعْفِ عَنِ الْعَمَلِ، وَيَتَسَلَّلُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَيَّنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾**﴾ [النور: ٦٢]. هَذَا شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾**﴾ [النور: ٦٣].

يَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا(٢): أَيْ خُفْيَةً، يَلُوذُ بَعْضُهُمْ مُتَخَفِّيًا بِبَعْضٍ.

---

(١) «البداية والنهاية»: سَنَةُ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ: غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ «وَقْتُهَا»: (٦/ ١٤).

(٢) «لسان العرب»: حرف اللام: فصل السين المهملة: (١١/ ٣٣٩).

وَقَدِ ازْدَادَ مَوْقِفُ الْمُنَافِقِينَ وُضُوحًا بَعْدَ ذَلِكَ لَمَّا ظَهَرَ سَعْيُهُمْ فِي تَثْبِيطِ وَتَخْذِيلِ وَتَوْهِينِ الْعَزَائِمِ، وَلَيْسَ أَشَدَّ عَلَىٰ الْجَيْشِ الْمُحَارِبِ مِنْ أَنْ يَكُونَ دُعَاةُ التَّخْذِيلِ وَالتَّثْبِيطِ وَإِشَاعَةِ رُوحِ الْهَزِيمَةِ مِنْ دَاخِلِهِ وَمِنْ بَيْنِ صُفُوفِهِ، فَلَقَدْ غَدَرَ الْمُنَافِقُونَ كَمَا غَدَرَ الْيَهُودُ، وَنَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَهُ وَلَا يَتَخَلَّوْا عَنْهُ.

وَلَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ مَوَاقِفَهُمْ هَذِهِ أَبْلَغَ بَيَانٍ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢-١٥].

وَالْحَقُّ أَنَّهُ مِمَّا تَتَمَيَّزُ بِهِ اسْتِرَاتِيجِيَّةُ الرَّدْعِ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَىٰ إِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَالْمُرَابَطَةِ الَّتِي تُوقِعُ الرَّهْبَةَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَتُخِيفُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ عُدْوَانِهِمْ أَنَّهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ رَدْعِ الْعَدُوِّ الْخَارِجِيِّ الظَّاهِرِ فَقَطْ، بَلْ تَشْمَلُ أَيْضًا رَدْعَ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ مِنَ الْقُوَىٰ الْمُضَادَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ ضِدَّهَا فِي الْخَفَاءِ، وَالَّتِي قَدْ يَكُونُ خَطَرُهَا إِذَا غَفَلَتِ الْأُمَّةُ عَنْهَا وَلَمْ تَتَصَدَّ لَهَا أَفْدَحَ بِكَثِيرٍ مِنْ خَطَرِ الْعَدُوِّ الظَّاهِرِ، وَهَذَا مَا يُفْهَمُ بِوُضُوحٍ مِنْ نَصِّ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فَهَذِهِ الْفِئَةُ الَّتِي تَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ هِيَ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِقَوْلِهِ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

وَقَدْ فَسَّرَهَا السَّابِقُونَ بِالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ ثَوْبًا ظَاهِرُهُ الرَّحْمَةُ وَبَاطِنُهُ الْعَذَابُ، إِلَّا أَنَّها تَنْطَوِيُ بِلُغَةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ كُلِّ الْقُوَىٰ الْمُضَادَّةِ الَّتِي تَحْقِدُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ وَتَنْفُثُ سُمُومَهَا فِي الْخَفَاءِ، وَتُرَوِّجُ الشَّائِعَاتِ، وَتُثِيرُ الْفِتْنَةَ، وَتُغْرِي بِالسَّلْبِيَّةِ وَالْفَسَادِ وَتَثْبِيطِ الْعَزَائِمِ، وَتَقْتُلُ الْإِرَادَةَ وَالْإِيجَابِيَّةَ.

وَمِنْ هَذِهِ الْفِئَةِ مَنْ يَكُونُ دَاخِلَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَبَيْنَ صُفُوفِ أَبْنَائِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ خَارِجَهَا يُدَبِّرُ وَيُخَطِّطُ وَيَتَحَرَّكُ بِكُلِّ الْأَسَالِيبِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ وَلِلْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ الْهَدَّامِ.

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ اشْتَمَلَتِ اسْتِرَاتِيجِيَّةُ الرَّدْعِ فِي الْإِسْلَامِ عَلَىٰ تِلْكَ الْفِئَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْأَخْفِيَاءِ، فَأَوْجَبَتْ عَلَىٰ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِعْدَادَ كُلِّ وَسَائِلِ الْقُوَّةِ وَالْمُرَابَطَةِ الَّتِي تَرُدُّ عَلَيْهَا»(١).

*** تَأْيِيدٌ مِنَ اللهِ، وَبَذْلُ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ الْجُهُودِ لِتَحْقِيقِ النَّصْرِ:**

لَقَدْ عَمِلَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رضي الله عنهم كُلَّ مَا يُسْتَطَاعُ مِنْ عَمَلٍ، وَأَفْرَغُوا جُهْدَهُمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ رِسَالَتِهِمْ وَعَنْ مَدِينَتِهِمْ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ فِي طَوْقِ الْبَشَرِ مُدَّخَرٌ، وَهُنَا أَخَذَ اللهُ بِأَيْدِي أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ،

---

(١) «غزوة الخندق والتصميم الهندسي للدفاع عن المدينة» لمحمد جمال الدين محفوظ: (ص: ١٦٠-١٦٢).

فَأَخَذَ سَيْرُ الْمَعْرَكَةِ يَتَطَوَّرُ عَلَىٰ نَحْوٍ لَا يُدْرِكُ النَّاسُ كُنْهَهُ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: ٣١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩].

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَصِيبِ أَرْسَلَ اللهُ عَلَىٰ الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةً، وَهَطَلَ الْمَطَرُ، وَقَصَفَ الرَّعْدُ، وَلَمَعَ الْبَرْقُ، وَاشْتَدَّتِ الْعَاصِفَةُ فَاقْتَلَعَتْ خِيَامَ الْأَحْزَابِ، وَكَفَأَتِ الْقُدُورَ، وَأَدْخَلَتِ الرُّعْبَ فِي النُّفُوسِ، فَخَافُوا أَنْ يُبَيِّتَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي تِلْكَ الْفُرْصَةِ، فَعَزَمُوا عَلَىٰ الرَّحِيلِ بَعْدَ أَنْ يَئِسُوا مِنْ تَحْقِيقِ مَا جَاؤُوا لِأَجْلِهِ بِسَبَبِ الْخَنْدَقِ الْمَانِعِ، وَالْمَدِينَةِ الْمُحَصَّنَةِ مِنْ خَارِجِهَا، وَالْمُقَاوَمَةِ الْيَقِظَةِ فِي دَاخِلِهَا، وَبِسَبَبِ يَأْسِهِمْ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ الَّذِينَ غَدَرُوا بِهِمْ، وَبِسَبَبِ الْخُطَّةِ الَّتِي أَحْكَمَ الرَّسُولُ ﷺ إِعْدَادَهَا لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْأَحْزَابِ.

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَلْحَظُ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- ذَكَرَ إِرْسَالَ الرِّيحِ وَإِنْزَالَ جُنْدِهِ لِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَقِبَ ذِكْرِهِ لِمَجِيءِ الْأَحْزَابِ وَتَجَمُّعِهِمْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ إِرْسَالَ الرِّيحِ وَإِنْزَالَ جُنْدِ اللهِ إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ عِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ مَجِيءِ الْأَحْزَابِ، بَلْ إِلَىٰ شَهْرٍ، فَذَكَرَ الْبَدْءَ وَالْمُنْتَهَىٰ، يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩] هَذَا كَانَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَجَمَعَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَىٰ فِي سِيَاقٍ، أَنْزَلَ جُنْدَهُ لِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَقِبَ ذِكْرِهِ لِمَجِيءِ الْأَحْزَابِ مُتَجَمِّعِينَ، مَعَ أَنَّ إِرْسَالَ الرِّيحِ وَإِنْزَالَ الْجُنْدِ -جُنْدِ اللهِ-

إِنَّمَا حَدَثَ بَعْدَ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ عِشْرِينَ يَوْمًا، بَلْ عَلَىٰ قُرَابَةِ شَهْرٍ مِنْ مَجِيءِ الْأَحْزَابِ، وَذَلِكَ بُرْهَانٌ قَوِيٌّ عَلَىٰ أَنَّ نَصْرَ اللهِ -تَعَالَىٰ- مُحَقَّقٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَأَنَّهُ أَرَادَ بِهَذِهِ الْغَزْوَةِ كَشْفَ خَبِيآتِ النُّفُوسِ، وَوَضْعَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]»(١).

فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَسْتَفِيدَ وَيُفِيدَ مِنْ هَذَا الدَّرْسِ، وَهُوَ أَنْ يَضَعَ نَفْسَهُ مَوْضِعَهَا، مَا زِلْنَا نَتَعَامَلُ مَعَ الْأُمُورِ الْقَلِيلَةِ وَالْأَهْدَافِ الْحَقِيرَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا غَايَاتٌ، كَانُوا يَحْفِرُونَ، وَنَحْنُ نُحَافِظُ عَلَىٰ أَثَرِ الْكِوَاءِ فِي الثِّيَابِ، وَيَأْنَفُ الْمَرْءُ أَنْ يَجْلِسَ عَلَىٰ التُّرَابِ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَحْمِلُ التُّرَابَ بِنَفْسِهِ، وَيُبَاشِرُ الْحَفْرَ بِنَفْسِهِ، بَلْ إِنَّ التُّرَابَ وَالْغُبَارَ لِكَثَافَتِهِمَا عَلَىٰ بَطْنِهِ قَدْ وَارَيَا شَعْرَ بَطْنِهِ ﷺ وَكَانَ كَثِيفَ الشَّعْرِ.. يُبَاشِرُ الْعَمَلَ، يُبَاشِرُ نُصْرَةَ الدِّينِ، لَا يَتَعَزَّزُ وَلَا يَجْلِسُ نَاحِيَةً، هَذَا شَأْنُ النِّسَاءِ؛ يَحْرِصْنَ عَلَىٰ جَوْدَةِ الثِّيَابِ وَجَمَالِ الْمَنْظَرِ وَحُسْنِ الطَّلْعَةِ وَنُعُومَةِ الْأَيْدِي وَرَهَافَةِ الْحِسِّ، أَمَّا الرِّجَالُ فَلَهُمْ شَأْنٌ آخَرُ.

*** أَعْظَمُ أَسْبَابِ النَّصْرِ فِي الْأَحْزَابِ: سِلَاحُ الْعَقِيدَةِ، وَنُبْلُ الْغَايَةِ:**

بِالْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الْأَهْدَافِ الرَّخِيصَةِ الْمَحْدُودَةِ الَّتِي جَاءَتِ الْأَحْزَابُ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِهَا وَبَيْنَ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ الشَّمَّاءِ الَّتِي يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ فِي سَبِيلِهَا وَالَّتِي

(١) «غزوة الخندق والتصميم الهندسي للدفاع عن المدينة» لمحمد جمال الدين محفوظ: (ص:١٦٢-١٦٥).

وَقَفَتْ فِي ظِلِّ رَايَتِهَا تِلْكَ الْقِلَّةُ الْمُؤْمِنَةُ لِتُوَاجِهَ تِلْكَ الْحُشُودَ الْهَائِلَةَ.. بِالْمُقَارَنَةِ يَتَّضِحُ الْفَارِقُ الْعَظِيمُ، وَيَتَّضِحُ أَيُّ سِلَاحٍ فَعَّالٍ سِلَاحُ الْعَقِيدَةِ عِنْدَمَا تَكُونُ عَقِيدَةً بَنَّاءَةً سَلِيمَةً صَحِيحَةً.

إِنَّهُ لَوْلَا الْعَقِيدَةُ الَّتِي تَسَلَّحَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ الْمُزَلْزِلَةِ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَثْبُتُوا أَمَامَ تِلْكَ الْحُشُودِ الْهَائِلَةِ الَّتِي بَلَغَتْ عَشْرَةَ أَضْعَافِ الْمُسْلِمِينَ، ذَلِكَ الثَّبَاتَ الَّذِي ظَلَّ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ.

لَقَدْ كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ جُيُوشِ الْأَحْزَابِ الْجَرَّارَةِ -لَوْلَا الْخَوَاءُ الْعَقَائِدِيُّ الَّذِي يُسَيْطِرُ عَلَيْهَا- أَنْ تُسَجِّلَ عَلَىٰ جَيْشِ الْمَدِينَةِ الصَّغِيرِ نَصْرًا حَاسِمًا حَتَّىٰ مَعَ وُجُودِ الْخَنْدَقِ؛ لِأَنَّ الْخَنْدَقَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ عَلَىٰ أَيِّ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ، لَا سِيَّمَا وَأَنَّهَا تَمْتَازُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ التَّفَوُّقِ السَّاحِقِ فِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ.

حَقِيقٌ أَنَّ اقْتِحَامَ الْخَنْدَقِ لِاحْتِلَالِ الْمَدِينَةِ يَتَطَلَّبُ تَضْحِيَاتٍ لَا يُسْتَهَانُ بِهَا، وَمَا كَانَتْ جُيُوشُ الْأَحْزَابِ لِتَبْخَلَ بِمِئَاتٍ مِنَ الْقَتْلَىٰ لِاقْتِحَامِ الْمَدِينَةِ لَوْ كَانَ بَاعِثُ غَزْوِهَا عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْبَاعِثِ الْعَقَائِدِيِّ الَّذِي وَقَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي ظِلِّهِ يُدَافِعُونَ عَنِ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الدِّفَاعَ الرَّائِعَ الْمَجِيدَ.

وَلَكِنْ.. لَمَّا كَانَ الْبَاعِثُ الْحَقِيقِيُّ لِحَشْدِ هَذِهِ الْجُيُوشِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ هُوَ ذَلِكَ الْبَاعِثَ الْمَادِّيَّ الضَّحْلَ الرَّخِيصَ الْمُتَمَثِّلَ فِي التَّمَكُّنِ مِنَ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ فَحَسْبُ، أَوِ التَّشَفِّي وَالِانْتِقَامِ فَحَسْبُ، فَإِنَّهُ مِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنْ تُحْجِمَ هَذِهِ الْجُيُوشُ

عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَىٰ مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ بَذْلَ الْمُهَجِ وَالْأَرْوَاحِ بِسَخَاءٍ كَبِيرٍ وَكَرَمٍ عَظِيمٍ.

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْعَكْسِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ هُمُ الَّذِينَ جَاؤُوا يَقُودُونَ تِلْكَ الْجُيُوشَ الْجَرَّارَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَحْزَابُ؛ لَمَا وَقَفَ الْخَنْدَقُ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ احْتِلَالِ الْمَدِينَةِ بِحَالٍ، بَلْ لَاقْتَحَمُوهُ فِي لَحَظَاتٍ كَمَا حَدَثَ مِنْهُمْ وَمِنْ أَبْنَائِهِمْ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ عِنْدَمَا كَانَ الْفُرْسُ وَالرُّومُ يُخَنْدِقُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ أَقْوَىٰ سِلَاحًا وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَكَذَلِكَ كَانُوا أَعْظَمَ تَطَوُّرًا فِي الْأَسْلِحَةِ الْحَرْبِيَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ مَا حَالَتْ حُصُونُهُمْ وَلَا خَنَادِقُهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الِاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ تِلْكَ الْحُصُونِ وَتَخْرِيبِهَا وَالْوُصُولِ إِلَىٰ الْمُقَاتِلِينَ الَّذِينَ تَخَنْدَقُوا وَرَاءَهَا.

إِنَّ الْمُخَطَّطَ الَّذِي خَرَجَ بِهِ زُعَمَاءُ الْيَهُودِ مِنْ خَيْبَرَ، وَالَّذِي بِمُوجَبِهِ تَمَّ تَحْشِيدُ تِلْكَ الْجُيُوشِ الْجَرَّارَةِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، يَهْدِفُ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَىٰ إِلَىٰ إِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ إِبَادَةً كَامِلَةً، وَإِلَىٰ هَدْمِ كِيَانِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَسَاسِ، يُشَاطِرُهُمْ فِي ذَلِكَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ وَقَادَةُ غَطَفَانَ.

*** نَتَائِجُ جَنَاهَا جَيْشُ الْأَحْزَابِ:**

«وَلَكِنْ مَا هِيَ النَّتَائِجُ الَّتِي جَنَاهَا قَادَةُ الْيَهُودِ وَقُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ كَحَصِيلَةٍ لِهَذَا الْغَزْوِ الْكَبِيرِ الْمُنَظَّمِ الْمَخُوفِ؟

النَّتَائِجُ كَانَتْ بِالتَّأْكِيدِ عَكْسِيَّةً مِئَةً بِالْمِئَةِ، وَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِيمَا يَلِي:

لَقَدْ مُنِيَتْ جُيُوشُ الْأَحْزَابِ بِهَزِيمَةٍ شَنْعَاءَ لَمْ تُمْنَ بِمِثْلِهَا قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَالْيَهُودُ فِي تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ؛ فَقَدْ جَنَىٰ الْأَحْزَابُ كَثَمَرَةٍ لِهَذَا الْغَزْوِ الْكَبِيرِ تِلْكَ الْهَزِيمَةَ الْمُنْكَرَةَ وَذَلِكَ الْفَشَلَ الذَّرِيعَ بَدَلًا مِنْ خَضْدِ شَوْكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَدْمِ سُلْطَانِهِمْ وَنَسْفِ كِيَانِهِمْ، فَانْحَدَرَتْ هَذِهِ الْهَزِيمَةُ بِسُمْعَةِ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ الْعَسْكَرِيَّةِ إِلَىٰ دَرَجَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَهَا أَيٌّ مِنْ هَذِهِ الْقَبَائِلِ -وَهِيَ أَقْوَىٰ قَبَائِلِ الْجَزِيرَةِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ- لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهَا بَعْدُ مُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ فِي غَزْوِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ لِذَلِكَ غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ هَذِهِ آخِرَ عَمَلِيَّةِ غَزْوٍ تَقُومُ بِهَا الْوَثَنِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ضِدَّ الْإِسْلَامِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ.

بَيْنَمَا ارْتَفَعَتْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ سُمْعَةُ الْمُسْلِمِينَ الْعَسْكَرِيَّةُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ حَتَّىٰ بَلَغَتِ الذِّرْوَةَ، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَهُمْ حَتَّىٰ سُقُوطِ آخِرِ مَعْقِلٍ لِلْيَهُودِيَّةِ وَالْوَثَنِيَّةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَسْيَادَ الْمَوْقِفِ، يَغْزُونَ وَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ غَزْوِهِمْ.

أَمَّا حَصِيلَةُ الْيَهُودِ مِنْ ذَلِكَ الْغَزْوِ الَّذِي هُوَ مِنْ صُنْعِهِمْ وَكَانَ نَتِيجَةً لِتَدْبِيرِهِمْ وَتَفْكِيرِهِمْ، بَلْ بَذَلُوا فِيهِ أَمْوَالَهُمْ، كَانَتِ الْخَسَارَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْيَهُودِ فَادِحَةً أَفْدَحَ مِنْ خَسَارَةِ الْوَثَنِيِّينَ فِي نَجْدٍ وَالْحِجَازِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُرَشِيِّينَ وَالنَّجْدِيِّينَ إِذَا كَانُوا قَدْ خَسِرُوا هَيْبَتَهُمُ الْعَسْكَرِيَّةَ، فَلَزِمُوا الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ حَتَّىٰ دَخَلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْعَرَبُ مِنَ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ بَعْدُ -يَعْنِي: بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ-، فَإِنَّ الْيَهُودَ لَمْ تَبْقَ لَهُمْ أَيَّةُ هَيْبَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ حَتَّىٰ يَخْسَرُوهَا، وَلَكِنَّ حِصَّةَ الْيَهُودِ

مِنْ ثَمَرَةِ هَذَا الْغَزْوِ الَّذِي أَثَارُوا عَوَاصِفَهُ كَانَتْ تَصْفِيَةَ الْعُنْصُرِ الْيَهُودِيِّ فِي يَثْرِبَ بِإِبَادَةِ كُلِّ رِجَالِ يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي الْمَدِينَةِ وَهُمْ ثَمَانُ مِائَةِ مُقَاتِلٍ، وَسَبْيِ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَهِيَ النَّكْبَةُ الْمُرَوِّعَةُ الَّتِي كَانَ الْيَهُودُ قَدْ أَعَدُّوا الْعُدَّةَ بِالِاتِّفَاقِ مَعَ الْأَحْزَابِ لِإِنْزَالِهَا بِالْمُسْلِمِينَ»(١).

لَا زَالَ الْيَهُودُ إِلَىٰ الْيَوْمِ عِنْدَ مَا يُسَمُّونَهُ كَذِبًا وَمَيْنًا بِحِائِطِ الْمَبْكَىٰ يَقُولُونَ: يَا لَثَارَاتِ قُرَيْظَةَ!

إِلَىٰ الْيَوْمِ يَقُولُونَ: يَا لَثَارَاتِ خَيْبَرَ!

إِلَىٰ الْيَوْمِ، وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ، وَهُمْ يَتَوَعَّدُونَكُمْ بِالذَّبْحِ!

بَلْ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِيمَا يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِنَشِيدِهِمْ فِي (حَرَكَةِ كَاخٍ)، وَهِيَ حَرَكَةٌ مِنَ الْحَرَكَاتِ الصُّهْيُونِيَّةِ الْمُتَعَصِّبَةِ، بَلْ هِيَ شَدِيدَةُ التَّعَصُّبِ، يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ مَاتَ خَلَّفَ بَنَاتٍ! مُوسَىٰ مَاتَ خَلَّفَ زَلَمَاتٍ -جَمْعُ زَلَمَةٍ، وَالزَّلَمَةُ: الرَّجُلُ-، فَهَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟!

يَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ ﷺ مَاتَ خَلَّفَ بَنَاتٍ، مُوسَىٰ مَاتَ خَلَّفَ زَلَمَاتٍ! فَهَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟!

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! أَفِيقُوا؛ فَإِنَّمَا هُوَ الدَّمَارُ -أَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ-.

---

(١) «موسوعة الغزوات الكبرىٰ»: الفصل السادس: حصيلة الغزو العكسية: (٣/ ٢٦٤-٢٦٦)، بتصرف يسير.

لَمْ تَتَوَقَّفْ نَكْبَةُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُجْرِمِينَ عَلَىٰ مَحْوِ مَا تَبَقَّىٰ لَهُمْ مِنْ كِيَانٍ فِي يَثْرِبَ كَحَصِيلَةٍ لِأَعْمَالِهِمُ الشِّرِّيرَةِ، مَا ظَلَمَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

النَّبِيُّ ﷺ وَفَىٰ لَهُمْ، لَمْ يَغْدِرْ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسَاءَ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ حَسَبِ الْعَهْدِ فِي الصَّحِيفَةِ الَّتِي كُتِبَتْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُمْ وَفِيًّا كَرِيمًا، وَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ، فَمَا الدَّاعِي -إِذَنْ- لِهَذِهِ الْخِيَانَةِ الصَّلْعَاءِ الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَىٰ أَسْوَأِ النَّتَائِجِ!

فَالْأَحْزَابُ مِنْ أَمَامٍ وَالْيَهُودُ مِنَ الْخَلْفِ، وَالْمُسْلِمُونَ مَحْصُورُونَ بَيْنَ فَكَّيِ الْكَمَّاشَةِ كَمَا يَقُولُونَ؛ بَيْنَ عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ جُنْدِ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ فِي الْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ وَالْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ، وَقَدْ جَاؤُوا مُتَوَعِّدِينَ، وَبَيْنَ مَا يُقَارِبُ عَدَدَ الْمُقَاتِلِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْيَهُودِ، كَانَ عَدَدُ الْيَهُودِ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ يَصِلُ إِلَىٰ عَدَدِ الْمُقَاتِلِينَ فِي الْخَنْدَقِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الْخَلْفِ، وَالْحُصُونُ الَّتِي فِيهَا النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَقَعُ فِي قَبْضَتِهِمْ، لَوْ أَنَّهُمْ عَدَوْا عَلَيْهَا لَتَمَكَّنُوا مِنْهَا وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ، وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ بِرِيحٍ وَجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا.

إِذَنْ؛ فِي كُلِّ أَعْرَافِ الدُّنْيَا -فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْقَدِيمِ- جَزَاءُ الْخِيَانَةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ مَعْلُومٌ.

النَّبِيُّ ﷺ مَا كَانَ لِيَتَرَفَّقَ بِهِمْ، إِنَّهُمْ بِخِيَانَتِهِمْ وَنَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ كَأَنَّمَا قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ، فَقَتْلُهُمْ يَكُونُ جَزَاءً وِفَاقًا لِغَدْرِهِمْ وَخِيَانَتِهِمْ، فَلَمْ يَقَعْ ظُلْمٌ بِحَالٍ، خَوَنَةٌ غَادِرُونَ نَاقِضُونَ لِلْعُهُودِ مُتَحَلِّلُونَ مِنَ الْمَوَاثِيقِ، فَمَاذَا كَانَ

يُنْتَظَرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُمْ؟! أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: هِيَ خَطَأٌ! هَذِهِ الْمُحَاوَلَةُ مِنْكُمْ كَانَتْ خَطَأً وَلَا تَعُودُوا إِلَيْهِ!

لَا يُؤْمَنُ جَانِبُهُمْ، الْمَدِينَةُ فِي حَالَةِ حَرْبٍ، وَالْقَوَانِينُ فِي حَالَةِ الْحَرْبِ لَيْسَتْ كَالْقَوَانِينِ فِي حَالَةِ السِّلْمِ، هَذَا مَعْلُومٌ فِي كُلِّ الْأَعْرَافِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَعِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ مِنَ الْقَدِيمِ إِلَىٰ الْحَدِيثِ، وَسَيَظَلُّ ذَلِكَ كَذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ عَقْلٌ وَمَا وُجِدَ فِي النَّاسِ عَسْكَرِيَّةٌ لَهَا قَوَانِينُ.

وَلَكِنْ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- دَائِمًا لَا يُنْظَرُ إِلَّا إِلَىٰ جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُمْ هُمُ الْقَتَلَةُ! هُمُ الْإِرْهَابِيُّونَ! هُمُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ وَيُدَمِّرُونَ وَيُخَرِّبُونَ! وَشَاهَتِ الْوُجُوهُ، وَشُلَّتِ الْأَيْدِي وَالْأَلْسِنَةُ، شَلَّ اللهُ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!

لَمْ تَتَوَقَّفْ نَكْبَةُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُجْرِمِينَ عَلَىٰ نَحْوِ مَا تَبَقَّىٰ لَهُمْ مِنْ كِيَانٍ فِي يَثْرِبَ كَحَصِيلَةٍ لِأَعْمَالِهِمُ الشِّرِّيرَةِ، بَلِ امْتَدَّتْ هَذِهِ النَّكْبَةُ إِلَىٰ مَوْطِنِ الْإِجْرَامِ وَوَكْرِ التَّآمُرِ خَيْبَرَ الَّتِي رُسِمَ فِيهَا مُخَطَّطُ ذَلِكَ الْغَزْوِ الرَّهِيبِ، فَقَدْ كَانَتْ حَمْلَةُ الْأَحْزَابِ الْمَخُوفَةُ دَرْسًا وَعَتْهُ قِيَادَةُ الْمَدِينَةِ، وَأَيْقَنَتْ عَلَىٰ أَثَرِهِ أَنْ لَا مَنَاصَ مِنْ ضَرْبِ قَوَاعِدِ الْعُدْوَانِ فِي خَيْبَرَ، وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي الْأَعْرَافِ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْقَدِيمِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْأُمَّةَ تَكُونُ مُهَدَّدَةً فِي بَقَائِهَا لَا فِي اسْتِقْرَارِهَا، وَالَّتِي إِنْ لَمْ تُضْرَبْ وَتُحَطَّمْ سَيَظَلُّ الْكِيَانُ الْإِسْلَامِيُّ عُرْضَةً لِخَطَرِ التَّآمُرِ وَالْعُدْوَانِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، لَا سِيَّمَا وَالْيَهُودُ يَمْلِكُونَ مِنَ الْمَالِ الْوَفِيرِ الْمَكْنُوزِ، وَالْمَالُ ذُو سُلْطَانٍ قَاهِرٍ، يَمْلِكُونَ مِنْهُ مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِثَارَةِ أَيَّةِ حَرْبٍ يُرِيدُونَ

إِثَارَتَهَا ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَلِهَذَا قَامَتِ الْمَدِينَةُ بِقِيَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَمَلِيَّةِ غَزْوٍ وَاسِعَةٍ ضِدَّ الْيَهُودِ فِي خَيْبَرَ حَتَّىٰ سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، وَسَقَطَ كُلُّ قَادَتِهَا وَزُعَمَائِهَا قَتْلَىٰ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَبِسُقُوطِ خَيْبَرَ تَمَّتْ تَصْفِيَةُ آخِرِ مَعْقِلٍ لِلْيَهُودِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَقُمْ لِلْيَهُودِ بَعْدَهَا أَيُّ سُلْطَانٍ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّىٰ الْيَوْمِ، وَلَنْ يَقُومَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ» (مُحَاضَرَة: ٦٢)، الْخَمِيسُ ٧ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٤٠هـ| ١٥-١١-٢٠١٨م.

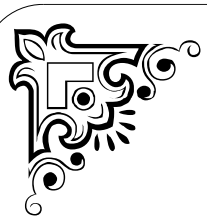

الْفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ ٣

غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ (الْخَنْدَقِ) ٤

سَبَبُ تَسْمِيَةِ الْغَزْوَةِ بِالْخَنْدَقِ وَالْأَحْزَابِ ٥

الْيَهُودُ سَبَبُ انْدِلَاعِ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ٦

بَرْلَمَانٌ يَهُودِيٌّ لِحَشْدِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ١٢

إِنْشَاءُ اتِّحَادٍ عَرَبِيٍّ وَثَنِيٍّ يَهُودِيٍّ لِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ ١٤

مُنَاقَشَاتٌ حَوْلَ الْإِسْلَامِ وَالْوَثَنِيَّةِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْيَهُودِ ١٥

حَشْدُ وَفْدِ الْيَهُودِ غَطَفَانَ وَالْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ١٧

حَشْدُ الْيَهُودِ عَشْرَةَ آلَافِ مُقَاتِلٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ٢٠

مُشَاوَرَةُ الرَّسُولِ ﷺ أَصْحَابَهُ وَحَفْرُ الْخَنْدَقِ ٢٣

حَفْرُ الْخَنْدَقِ جَعَلَ الْمَدِينَةَ حِصْنًا مَنِيعًا ٢٨

مُعَانَاةُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخَاذُلُ الْمُنَافِقِينَ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ ٣١

الْمُعْجِزَاتُ النَّبَوِيَّةُ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ ٣٥

مُدَّةُ حَفْرِ الْخَنْدَقِ ٤٠

تَعْبِئَةُ الْجَيْشَيْنِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَعْرَكَةِ ٤٢

عَجْزُ جَيْشِ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْهُجُومِ بِسَبَبِ الْخَنْدَقِ ٤٥

نَقْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ٤٦

تَحَرِّي سُفَرَاءِ النَّبِيِّ ﷺ خَبَرَ نَقْضِ بَنِي قُرَيْظَةَ الْعَهْدَ ٤٩

مُحَاصَرَةُ الْأَعْدَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ وَاشْتِدَادُ الْخَوْفِ ٥٢

ظُهُورُ النِّفَاقِ مَعَ اشْتِدَادِ الْمِحْنَةِ ٥٤

تَبْشِيرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّصْرِ وَحِرَاسَةُ الْمَدِينَةِ ٥٥

مُحَاوَلَةُ الصُّلْحِ مَعَ غَطَفَانَ وَمُشَاوَرَةُ النَّبِيِّ السَّعْدَيْنِ ٥٦

مُنَاوَشَاتٌ وَرَمْيٌ بِالنَّبْلِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ ٥٨

اسْتِمْرَارُ الْمُنَاوَشَاتِ وَإِصَابَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه ٥٩

رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ رضي الله عنها تُدَاوِي الْجَرْحَىٰ ٦٢

اسْتِمْرَارُ الْقِتَالِ وَفَوَاتُ صَلَاةِ الْعَصْرِ ٦٣

إِسْلَامُ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَهَمِّيَّتُهُ ٦٦
وُقُوعُ الْخِلَافِ وَالْفُرْقَةِ بَيْنَ الْأَحْزَابِ ٧١
دُعَاءُ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ الْأَحْزَابِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ ٧٣
مُهِمَّةُ حُذَيْفَةَ الِاسْتِخْبَارَاتِيَّةُ لِلْإِتْيَانِ بِخَبَرِ الْأَحْزَابِ ٧٧
انْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ٨٠
انْصِرَافُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ ٨١
مُلَخَّصُ دَوْرِ الْيَهُودِ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ٨٢
غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ.. النَّتَائِجُ وَالدُّرُوسُ ٩٠
الْفِهْرِسُ ١١٥